القسم الثاني

نماذج لحواشي التّلمود التفسيرية على التوراه

الفصل الأول
الخلاص من أرض مصر

«فهرب مُوشيْه من وجه فَرْعُوه ومكث بأرض مِديَن وقعد عند البئر»[1].
ויברח משה מפני פרעה וישב בארץ־מדין וישב על־הבאר.

إن ثلاثاً من شخصيات التُّوراه البارزين قد قابلوا زوجاتهم للمرّة الأولى عند آبار ماء ، وهم تحديداً : يصحاق ، يعقوب ، مُوشيْه .

ففيما يخصّ يصحاق نجد : «وكان يصحاق راجعاً من طريق بئر الحَيّ الرّاءي» באר לחי ראי (سِفر التكوين – 24 : 62) . بالإضافة إلى ذلك كان إليعيزِر رسول أبيه قابل رِبْقاه عند البئر . أما يعقوب فأيضاً عند بئر قابل راحيل ، وقابل مُوشيْه بنات يِثْرو عندما وَرَدْنَ لسقاية ماشية أبيهنّ .

فطالما أن الرّبّ يمقُت الوثنيّة ، كيف بمُوشيْه يقصد بيت رجل وثني (يِثْرو) ؟

يقول الحاخامون إن يِثْرو كان قد أدرك ضلال سُبُله ، فاستعفى من منصبه ككاهن لأوثان مِديَن من قبل أن يأتيه مُوشيْه . ومن أجل ذلك نَبَذه النّاس هو وأهل بيته ، وقطعوا كل علاقاتهم بهم ، ولذلك السّبب أحجم الرّعاة عن العمل لديه ، فاضطرّت بناته لسقاية ماشيته ورعايتها .

---

(1) سفر الخروج – 2 : 15 .

يقول داوِد[1] النبي في مزاميره : «عيناه تنظران ، أجفانه تمتحن بني آدم» .

ويقول الرّابي ينّاي : «رغم أن ملكوته في السّماء ، فإن عينيه ناظرتان إلى الأرض . تماماً كالملك الذي بنى برجاً عالياً في بستانه وأقام فيه ، وقال لعمّاله : «عليكم بالعناية ببستاني على أحسن وجه ، فلتكن الممرّات نظيفة ولتنل الأشجار عناية لائقة بحيث تطرح ثماراً طيّبة . فمَن كان منكم مخلصاً في عمله نال مكافأة مُجزية ، ومَن أهمل أوامري سيلقى العقاب الذي يستحقّه وِفاقاً !» . فهذا العالم الواسع والفسيح ما هو إلا بستان ملك الملوك ، الذي أوكل به الإنسان لاتّباع أوامره وشرائعه ، وللحفاظ على مُتعة الطاعة . فمَن كان مخلصاً نال الثّواب ، أمّا مَن أهمل الثّقة الموكلة إليه فيلاقي ما يوافق أفعاله . ولذلك قال داوِد النّبي : «عيناه تنظران ، أجفانه تمتحن بني آدم» (المزامير 11 : 4)» .

الله يبحث عن الصّالحين ، كيف ؟ عن طريق الحكم على الكيفيّة التي يعاملون بها الرّعيّة الموكلة إليهم .

لقد جرّب الله داوِد بن يشّاي (النّبي) وفق هذه الطريقة . فداوِد قدّم للحملان عُشباً طرياً تغتذيه ، وللخراف الهرمة حشائش غضّة وعُشباً طرياً ، أما الخراف الفتيّة القادرة على المضغ فأعطاها العشب الذّابل ، فخصّ كلاً منها بحسب حاجتها وطاقتها . ولهذا قال الرّب : «إن داوِد القدير على القيام بأوَد القطعان الموكلة إليه بعناية لهو جدير برعاية قطيعي ، أي شعب يسرَئيل» . تماماً كما هو مكتوب[2] : «من بعد المُرضعات ، أتى به ليرعى يعقوبَ شعبَه» .

وكذلك أيضاً جرّب الرّب مُوشيْه . فأثناء غدوّه بماشية حَميه في البريّة شرد حَمَل عن القطيع وعَدا مُبتعداً . فما كان من الرّاعي الرّحيم إلا أن تبعه ، ووجده يروي ظمأه من نبع على طرف الطريق . قال مُوشيْه : «يا للحمل المسكين ، ما كنتُ أعلم أنك ظامئ» ، فلمّا فرغ الحَمَل من الشّرب حمله برفق بين ذراعيه وردّه

(1) اسمه في العبرية : דוד (ولفظه : داڤيد) ، والملاحظ أنه يرد كذلك بدقّة في رسم القرآن الكريم بواو واحدة (كما في رسمه الأصلي بالعبرية بحرف ו) . وسبق أن ذكرنا أن هذا لاعتبار القيمة العددية للأسماء وفق ما يُعرف بـ «علم الحرف» .

(2) مزامير داوِد – 78 : 71 .

إلى القطيع . فقال الله : «يا مُوشيه الرّحيم ، إن كان حبّك ورعايتك بهذا القدر لحيوان أعجم ، فكم سيكون أعظم تجاه بني جنسك ! لذا فإنك ستقود شعبك بني يِسْرَئيل !» .

لماذا تجلّى الربّ لموشيه في العُلّيقة ؟ هذا لأن العُلّيقة وضيعة بين الأشجار ، وكذلك كان بنو يِسْرَئيل وضيعين بين أمم الأرض . وكما أن الورد ، أجمل الأزاهير ، ينمو بين الأشواك ، فإن من ضمن بني يسرئيل هناك الصّالح والطالح يدخلان معاً تحت العدّ . ومَن يدسّ يده في دغلة الأشواك قد يتمكّن من فعل ذلك دون أن يتأذّى ، ولكنه لا يستطيع أن يمدّها ثانيةً دون أن يجرحها العلّيق . فهكذا كان شأن بني يسرئيل . فلمّا دخل يعقوب مصر تمّ ذلك بسلام ودون أن يلحظه أحد أو يزعجه ، ولكن لمّا خرج بنوه من البلد ، جرى ذلك بعلامات ومُعجزات وحرب . ولئلا يخطر في بال مُوشيه أن قسوة المصريين قد كسرت شوكة بني يسرئيل نهائياً ، تجلّى الله له في شجرة عُلّيق مشتعلة وهي لا تحترق ، لكي يمثّل له وضع بني يسرئيل ومستقبلهم ، التّام والفائق ، برغم نار الظّلم .

«فقال الربّ إني قد رأيتُ ناظراً إلى مَذَلّة شعبي الذين بمصر»[1] .

عندما صرف أبرَهام هاجار ، ولمّا بكى ولدها صارخاً إليها في طلب الماء بالبرّيّة ، ضَرَعت إلى السّماء قائلة : «أيها الآب الرّحيم ، لقد وعدتَني قائلاً : «سأضاعف نسلك» ، والآن ها هو ابني سيموت من الظمأ» .

وعند ذلك أجابها الملاك : «ما لَكِ يا هاجار ؟» ، إلخ .

فبحسب رأي الرّابي شمعون ، راحت الملائكة تحتجّ على العون المبذول ليشْمَعيل ، قائلةً لله : «إن لقي منك العَون اليوم فسوف يبادر بأذيّة شعبك بني يسرئيل في مُستقبل الأيام» . فقال الله : «كيف كان سُلوكه اليوم ؟» ، ولمّا أجابت الملائكة : «كان صالحاً قويماً» ، أضاف الله : «فهو إذاً يُدان اليوم بحسب ما يبدر عنه اليوم» .

---

(1) سفر الخروج – 3 : 7 ، والترجمتان العربيتان عن السبعينية اليونانية غير دقيقتين ، على اعتبار عدم رجوعهما إلى النّص العبري .

وهكذا كان الأمر مع اليسرئيليين في مصر . فقد عرف الرّب ماذا سيصدر عنهم من أفعال في المستقبل ، فقال : «إني قد رأيتُ ناظراً» ראה ראיתי ، لا مجرّد «إني رأيتُ» ، بل «رأيتُ ناظراً» ، بمعنى يفيد أكثر من مجرّد النظر المحدود أو الملاحظة السريعة .

وقال الرّب لمُوشيْه : «أنتَ ترى أمراً واحداً ، أما أنا فأرى اثنين . فأنت تدري أن بني يسرئيل سيتلقّون الوصايا العشر عند جبل سيناء ، أما أنا فأعلم سلفاً بما سيقع بعد ذلك ، أي بضلالهم وصنعهم للعجل المسبوك . ولكنني برغم ذلك لست أدينُهم إلا بحسب سلوكهم الحالي . لقد سمعتُ صراخهم ، ورغم أنني أعلم أنهم سيتقوّلون عليّ بغير حق في البريّة ، فلسوف أستنقذهم . لقد وعدتُ جدّهم يعقوب قائلاً : «إني لرادّك صعوداً» ، فالآن أردّ أبنائي صعوداً كما وعدتُهم ، وأجوزُ بهم إلى الأرض التي أعطيتها لآبائهم . لقد أتاني صراخهم وها هي ذي أيّام عبوديّتهم قد انتهت . لذا فامضِ . . . وأخرج شعبي ، بني يسرئيل ، من مصر . إنك أنت المكلّف بردّهم» .

فأجاب مُوشيْه : «لمّا هبط يعقوب إلى مصر ، ألم تقل له : «سأهبط معك إلى مصر ، وأنا بنفسي أردّك صعوداً كرّةً ثانية ؟» ، والآن تقول : «إمضِ أنت» . فكيف لي أن آتي بهم صعوداً ؟ وكيف أحميهم من قيظ الصّيف وقَرّ الشتاء ؟ ثم كيف لي أن أعيل جيشاً من ست مئة ألف إنسان ، بكثير من النساء والأطفال ، ومنهم من هو عاجز ومُقعد ، يلزمه رعاية فائقة وغذاء خاص ؟» .

أجاب الرّب : «الخبز غير المخمّر الذي يحملونه معهم يكفيهم طوال الثلاثين يوماً» .

ثم قال مُوشيْه : «فإن قالوا لي : «ما اسمه ؟» ، بمَ أجيبهم ؟» .

فأجاب الرّب : «لي أسماء عديدة . فاسمي «الله الجبّار» (אל־שדי إيل شَدّاي) ، و «إله الجيوش» (אדני צבאות أدوناي صبَؤوت) . فعندما أعاقب ذوي الضّلال أُدعى «إله الجيوش» ، وعندما أوبّخ المذنبين أُدعى «الله الجبّار» . وعندما أُنزل الرّحمة على شعبي أُدعى «الأزلي» (יהוה يَهُواه) .

ثم قال الله لمُوشيْه : «أنا هو الكائن ، وهذا اسمي إلى الأبد» .

وعَنى الله بذلك : «الكائن معهم في عبوديّتهم ، والكائن معهم في أسْرهم المقبل» .

ثم قال مُوشيْه : «لماذا عليّ أن أنبئهم بأسْرهم المُقبل ، طالما أنهم يعانون السّاعة ربقة العبوديّة ؟» .

فأجاب الله : «أحسنتَ القول ، لا تقل لهم عن مآسيهم المُقبلة» .

«فأجاب مُوشيْه وقال : «إنهم لا يصدّقونني» »[1] .

لقد أخطأ مُوشيْه بجوابه هذا ، لأن الله قد قال سلفاً : «لصوتك يُصغون» .

لذا قال الله : «ما تلك التي بيدك ؟» . وهذا كان توبيخاً ، بمعنى أنه بالعصا التي كانت بيده يستحق أن يُجازى على تشكّكه .

ولماذا صارت عصا مُوشيْه حيّةً ؟ لأنه تقوّل باطلاً في حقّ الرّب ، تماماً كما فعلت الحيّة في جنّة عدِن גן־עדן .

قال شيخ عشيرة وثني للرّابي يوساه : «آلهتي أقوى وأعزّ سُلطاناً من آلهتك» . فسأله الحاخام : «وكيف يكون ذلك ؟» . أجاب الوثني : «ذلك لأنه لمّا تجلّى إلهك في العُلّيقة ستر مُوشيْه وجهه ، أمّا حينما أبصر الحيّة ، وهي إلهي ، هرب من وجهها» .

فأجاب الرّابي يوساه : «عندما يتجلّى إلهنا ليس بمقدورنا الهرب منه ، فهو كائن في السّماء وفي الأرض ، في البحر وفي البرّ ، أمّا إن هرب أحدٌ ما من الحيّة إلهك فبضعة خطوات يسيرة تُنجيه» .

وما هو مدلول الحيّة فيما يخصّ رجوع بني يسْرَئيل ؟ إن لفَرْعوه وجه شبه بالحيّة ، كما هو مكتوب : «الحيّة المُتحوّية» . فتماماً كلدغة الحيّة كانت عبوديّة فَرْعوه لبني يسرَئيل .

---

(1) سفر الخروج - 4 : 1 : ויען משה ויאמר והן לא־יאמינו לי .

قال الرّب لمُوشيْه : «إن فَرْعوه الآن مثله مثل حيّة ، بوسعك أن تُرديه بعصاك ، فيكون عاجزاً كخشبة . ومثلما تكون العصا عاجزة عن الأذى بغير معونة الإنسان وقوّته المحرّكة ، فهكذا يكون فَرْعوه عاجزاً عن الإيذاء» . ولذلك فقد قال : «مُدَّ يدك وأمسك بذنبها» .

ولماذا أُمِرَ مُوشيْه بدسّ يده في جيبه عندما جُعلت بيضاء من البَرَص ؟ ذاك لأن البُهتان والباطل يشيعان بالعادة في الخفاء ، كما هو حال الجيب المخبوء .

وكيف أن هذا التحوّل إلى البَرَص يمثّل إعتاق بني يسرَئيل ؟ كما هو الأبرص (المجذوم) يدنّس الإنسان النّقي السّليم ، فإن اضطهاد المصريين دنّس اليسرئيليين ، وكما أن اليد البرصاء عادت سليمة ، فإن الله قدّر تطهير شعبه .

وفي المعجزتين الأوليين اللتين أظهرهما الرّب لمُوشيْه ، عاد الشيئان إلى سيرتهما الأولى ، إنما في الثالثة ، وهي استحالة الماء إلى دم ، لم يعد الوضع إلى سابق عهده . وبذلك كان الله يُنذر بأن ذنب مُوشيْه الذي اقترفه في «مريباه» سوف لن يُغفر له .

وفي كل مرّة يُذكر فيها موت مُوشيْه في الكتاب المقدّس ، يُذكر أيضاً سبب موته قبل دخوله الأرض المقدّسة ، وهو معصيته في مريباه[1] מריבה . فما دعوى ذلك ؟

ذات يوم قام أهل الحكم بمعاقبة رجلين ، كان أحدهما اقترف جريمة بينما لم يرتكب الآخر سوى جناية بسيطة . فطلب الأخير أن يتمّ الإفصاح عَلَناً عن سبب عقوبته ، لئلا يختلط على النّاس أمر جنحته البسيطة مع الجريمة الأفدح منها . فهكذا كان شأن مُوشيْه . . قدّر الله له أن يموت في البريّة ، كما قدّر أيضاً أن يهلك ذلك الجيل بأجمعه (ما خلا يهوشُوَع وكاليب) . ولذلك ، لئلا يُصنّف مُوشيْه معهم كعاصٍ في وجه الرّب ، تمّ ذكر سبب عقوبته مُرتبطاً بمماته .

---

(1) سفر الخروج – 17 : 7 . ومعصيته أنه صرخ إلى الرّب لمّا خاصمه الشعب وطلبوا ماءً للشّرب . ولذلك يرد في التّوراه : «وسمّي ذلك الموضع الامتحان والخصام» ، وفي النص العبري : ויקרא שם המקום מסה ומריבה ، و«مريباه» : الخصام .

«فقال مُوشيْه للرّب : «رُحماك يـا ربّ ، إنـي لستُ أُحسـن الكـلام» »[1] .
ויאמר משה אל־יהוה בי אדני לא איש דברים אנכי:

وكرّر الرّب أمره لمُوشيْه لمدّة سبعة أيام ، لكن مُوشيْه بقي متردّداً في الإجابة وقال : «إني لستُ أُحسن الكـلام اليـوم» (فهـذا يـوم) ، «أمـس» (يومـان) ، «لا» (ثلاثـة أيـام) ، «مـا قبـل» (أربعـة) ، «ولا» (خمسـة) ، «ولا مُـذ» (سـتة) ، «خاطبتَ» (فهذه سبعة أيام) .

فقال الرّب : «لا تخشَ شيئاً ، حتى لو لم تكن تُحسن الكلام ، أفَمَن إلاّي خلق كل الأفواه التي تُحسن الكلام ؟ أليس بمشيئتي أن أحوّل مَن يحسنون الكلام إلى بُلهاء ، وأُطلق بالفصاحة ألسنة البُلهاء ؟ فمشيئتي تقضـي أن تكـون أنـت مَـن يُخاطب فَرْعوه» .

فأجاب مُوشيْه قائلاً : «هؤلاء مَن تريد رَدّهم أحفاد أبرَهام ، فمَن أدنى إلى المرء ، ابن أخيه أم ابن ابنه ؟ فلنُصرة لُوط ، ابن أخيـه ، أرسـلتَ ملائكـةً ، والآن لنُصرة أبنائه ، الذين يعدّون ست مئة ألف ما خلا النساء والولدان ، ترسلني أنـا . لأجل هاجار أرسلتَ خمسة ملائكة عندما هربت من وجه سيّدتها ساراه ، أمّا إلى ستين ألفاً من أبناء ساراه فلا تُرسل سواي ؟» .

يُخبرنا الرّبّانيّون أن مُوشيْه لم يكن محجمـاً عـن القبـول بهـذه المهمّة بدافـع الخوف أو الارتياع من مشقّتها ، أو بدعوى معصية الله ، بـل لأنـه كـان يعتقـد أنهـا بالأحرى من حق أخيه الأكبر أهَـرُون . غـير أن الله غضـب مـن مُوشيْه ، ولذلـك منح حقّ الكهانة الدّينية التي كان يخصّه بهـا إلـى أهَـرُون ، قـائلاً : «أليـس أخـوك أهَرُون اللّيوي ؟»[2] : הלא אהרן אחיך הלוי . .

فعندما قال الله : «أخوك אחיך » ، كانت عبارة «اللّيوي הלוי » مُقحمة ، لأنه طالما كان مُوشيْه ليوياً ، فإن أهَرُون مثله بالضرورة أيضاً ، لكن مقصد الله مـن وراء ذلك هو ما يلي :

---

(1) سفر الخروج – 4 : 10 .
(2) يلاحظ هنا أيضاً خلل في الترجمة العربية للتّوراه عن السّبعينية اليونانية .

«كان في نيتي أن أجعلك أنتَ كاهني ، وأن يبقى أخوك على مرتبته ليويّاً ، ولكن بسبب إحجامك عن تنفيذ مشيئتي سيكون هو الكاهن وأنت اللّيوي» .

«وقال الرّبّ لأهَرُون : «امضِ للقاء مُوشيْه»»[1] ויאמר יהוה אל־אהרן לך לקראת משה .

وعبارة «مَن لي بكَ كأخ لي ؟» מי יתנך כאח לי ، هي إحدى التعابير الجميلة في أنشودة شْلومو (الملك سليمان)[2] .

لكن أي أخ هو هذا ؟ ليس كما كان قَين لأخيه هَبِل ، فقد «قام قَين إلى أخيه هَبِل وقتله» . وليس كما كان يشمَعيل ليصحاق ، لأن يشْمَعيل كان يكره يصحاق ، وليس كعيسَو ، لأن «عيسَو كان يكره يعقوب» . وليس أيضاً كإخوة يوسيف ، لأنهم «لم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام» . وإنما هو أخ كأهَرُون لمُوشيْه ، كما هو مكتوب : «فمضى (أهَرُون) ولقيه (مُوشيْه) في جبل الله وقبّله» (سفر الخروج – 4 : 27) .

«فمضى مُوشيْه وأهَرُون»[3] וילך משה ואהרן .

فأين كان الشيوخ ؟ نجد ذلك مكتوباً في التّوراه : «فأنت وشيوخ بني يسْرَئيل تأتون» . لقد مضى الشيوخ ، لكنهم جعلوا ينكصون شيئاً فشيئاً ، بداعي الفزع ، لذلك فبعد هذا تصبح العبارة المكتوبة ببساطة : «فمضى مُوشيْه وأهَرُون» .

* * *

(1) سفر الخروج – 4 : 27 .

(2) انظر نشيد الأناشيد – 8 : 1 . وهذا السّفر «شير هَشّيريم» من أصغر أسفار «الكتوبيم» ، يتألف من 8 فصول مطلعها : «نشيد الأناشيد لشْلومو» שיר השירים אשר לשלמה وتحمل معاني رمزية دينية على شكل قصائد تنشد الحبّ بين بني البشر والإله . وهي من الناحية الأدبية إحدى أجمل مقاطع كتاب اليهود المقدّس (تَنَخ) .

(3) سفر الخروج – 4 : 29 .

«كذا قال الله الأزلي»[1]، إلخ כה־אמר יהוה . .

برأي الرّابي حِيّا ، أنه جرى في ذلك الحين أن الملوك المجاورين جميعهم كانوا يتوافدون على فَرْعوه لأداء فروض الطاعة له وتقدمة العطايا ، وكان كل حاكم منهم يصطحب معه آلهته . وفيما كان مُوشيْه وأهَرُون واقفين قرب بوّابات القصر ، ظنّهما الحرّاس من بعض الوافدين لتقديم الولاء ، فأدخلوهما . فلمّا نظر إليهما فَرعوه ورآهما غريبين تصوّر أنهما إنما قصداه ببعض العطايا ، وتعجّب لِمَ لم يؤدّيا له التّحية كالآخرين . فتكلّم قائلاً : «ماذا تبغيان ؟» . فأجابا : «كذا قال الرّب : «أطلق شعبي» » ، إلخ .

فقال فَرعوه بإباء وسخط : «من هو هذا الرّب فأطيعه ، وأسمع لقوله فأطلق يسْرَئيل ؟ إنه لم يقدّم لي عطيّة ولا تجلّى لي . لا أعرفه ولا أطلق يسْرَئيل» . وتابع قائلاً : «ها أنا ذا سأرجع إلى سجلاتي المحفوظة وأنظر إن كان فيها اسم إلهكم . ها هنا أجد أسماء الآلهة كلّها ، آلهة آمون وآلهة مؤاب وآلهة زدين ، أما اسم إلهكم فلستُ أجده» .

فأجاب مُوشيْه : «إلهُنا إلهٌ حيّ» .

فقال له فَرْعوه : «أفتيٌّ هو أم عجوز ؟ كم يبلغ عمره ؟ وكم مدينة يحتل ؟ وكم بلداً غزا ؟ وكم من الزمن مضى لحكمه ؟» .

فقال مُوشيْه : إن جبروته[2] تملأ الكون . وهو أزلي قديم كائن قبل أن تُبصر هذا الدّنيا النّور ، وسيبقى على الدّوام بعد زوال هذه الدّنيا . وهو مَن أنشأكَ وخلقك ، ومن نَسَمة روحه تتنفّس وتحيا» .

فتابع فَرْعوه مُساءلته : «وماذا لإلهكما من مآثر ؟» . فأجابه رسولا الله : «صوت الله يمزّق شجر الأرز ، إنه هو مَن مَدّ السّموات ، وبَسَط الأرض مِهاداً ، وأرسى الجبال وحطّم الصّخر إلى حجارة . قوسُه من نار ونباله من شرر . هو مَن

---

(1) سفر الخروج – 5 : 1 .

(2) مصدر «الجبروت» في العبريّة يرد بصيغة : גבורה جبوراه ، بمعنى : بأس ، جرأة . أما صيغة גבורות جبروت فهي تعني : رجولة ، من الآراميّة גברא جبرا حدا .

أرسى الجبال والتّلال ، وأخرج المرعى ، فأنبتَ به فاكهةً وعُشباً . إنه مَن ينزع المُلك ممّن يشاء ويُعزّ مَن يشاء» .

فكان ردّ فَرْعوه : «قد أتيتُماني بالزُّور والباطل ، تقولان إن إلهكما هو ربّ الكون . . فلتعلما أن مصرَ مُلكُ يميني ، وأنني خالق نهر النّيل العظيم الذي يجري في أرجائها» (قارن ذلك بما في سفر يَحزَقْئيل : «نهري هو لي وأنا صنعتُه لنفسي» ، לי יארי ואני עשיתני ، يَحزَقْئيل - 29 : 3) .

فانبرى فَرْعوه إلى سَحَرَته سائلاً : «أسمعتُم بإلههما ؟» . فقال السَّحَرَة : «نعم ، سمعنا به ، إنه ابن الحكماء ، ابن مَلِك قديم من سالف الأيام» .

قال مُوشيْه : «أنتَ تسأل الآن : «مَن هو الرّب» ، ويأتيك زمان تقول فيه : «إن الله حَقّ» . تقول الآن : «أنا لا أعرف إلهكم» ، ويأتيك زمان تقول فيه : «ربٌ إني كنتُ في حقّك من الظالمين» » .

* * *

«وصادفوا مُوشيْه وأهَرُون . . . وجعلتُما في أيديهم سيفاً ليقتلونا»[1] . ויפגעו את־משה ואת־אהרן ... לתת־חרב בידם להרגנו .

قال بنو يسْرَئيل المُنهكون لمُوشيْه وأهَرُون : «أجل ، إننا كالحَمَل الذي اختطفه الذّئب من القطيع ، فراح الرّاعي يجاهد لفكاكه ، وكان مصيره التمزّق بين الاثنين ، وها نحن أولاء ما بينكما أنتما وفَرْعوه سنلقى حتفنا» .

«فرجع مُوشيْه إلى الرّب وقال : «يا ربّ لماذا ابتليتَ هؤلاء الشّعب ؟» »[2] . וישב משה אל־יהוה ויאמר אדני למה הרעתה לעם הזה .

كان الرّب مُسبقاً قد حذّر مُوشيْه بأنه سيقسّي قلب فَرْعوه ، فيرفض السّماح لبني يسْرَئيل بالخروج . ولذلك أجابه الله الآن : «الآن ترى ما أصنع بفَرْعوه ، لكنك لا ترى ما أصنع بممالك كنعان الثلاث» .

---

(1) سفر الخروج - 5 : 20-21 .
(2) سفر الخروج - 5 : 22 .

«وتجلّيتُ لأبرَهام»[1] إلخ ، וארא אל־אברהם .

قال الرّب لموشيه : «واهاً ثم واهاً على فناء الصّالحين ، واحسرتاه على الأخيار من السّلف الصّالح . لقد تجلّيتُ لأبرَهام وليصحاق وليعقوب بصفتي «الله الجبّار» (אל־שדי إيل شَدّاي) ، وليس باسمي «الأزلي» (יהוה يَهُواه) كما تجلّيتُ لك ، ومع ذلك لم يتذمّروا إزاء أوامري أو أفعالي . وقلتُ لأبرَهام : «قُم فامشِ في الأرض بطولها وعرضها ، فإني لك أعطيها» ، ولمّا ماتت امرأته لم يكن يبغي سوى قبر لها فاضطرّ لشرائه بماله ، ومع ذلك لم يتذمّر في وجهي أو يُبدِ أيّة شكوى قائلاً : «قد وعدتَ أن تعطيني هذه الأرض كلّها ، فها أنا ذا الآن علي أن أبحث عن رقعة صغيرة منها لأشتريها» . كما قلتُ ليصحاق : «أقم في هذه الأرض ، لأني لك ولذرّيتك أعطي هذه البلاد كلّها» ، فلمّا احتاج إلى بعض الماء لم يحصل عليه ، حيث أن رعاة جِرار اشتجروا مع رُعاته لمنعهم من حفر بئر . ومع ذلك لم يرفع يصحاق صوته في وجهي . وقلتُ ليعقوب : «الأرض التي تمكث عليها أعطيها لك» ، فلمّا أراد أن يضرب فيها قباءه اضطر أن يدفع مئة قَسيطاه[2] קשיטה ، غير أنه لم يتذمّر في وجه الرّب ، أو حتى أن يسألني عن اسمي ، كما فعلتَ أنت» .

«فكلّم الرّبّ مُوشيه وأهَرُون ، وأوصاهما في بني يسْرَئيل وفَرعوه ملك مصر»[3] . . וידבר יהוה אל־משה ואל־אהרן ויצום אל־בני ישראל ואל־פרעה מלך מצרים .

كان لأحد الملوك بستان حَسَن وبهيّ جعل فيه غراساً من شجر ، كان بعضها مثمراً والآخر غير ذي ثمر . فقال له خدمه : «ما فائدة غرس الأشجار غير المثمرة ؟» ، فأجابهم : «الأشجار المثمرة وغير المثمرة نافعة على حدّ سواء ، فمَن لنا بالخشب لبيوتنا ولقوارينا ولأدواتنا إن لم تكن لدينا هذه الأشجار الصلبة التي لا تطرح ثمراً ؟» .

---

(1) سفر الخروج – 6 : 13 .
(2) القسيطاه (أو القشيطاه) عُملة قديمة تساوي ربع شيقل . انظر سفر التكوين – 33 : 19 .
(3) سفر الخروج – 6 : 13 .

فكما أن الصّالحين يمجّدون الرّب بنعمائهم ، فالأشرار أيضاً يمجّدون الرّب عندما يقرّون بقولهم : «قد نلنا جزاءنا وفاقاً بما جَنَت أيدينا» .

ولمّا أبدى أهَرُون الآيات بعصاه ، ضحك منه فَرْعوه واستخفّ به قائلاً : «من عادة التجّار أن يحملوا بضاعتهم إلى حيث تكون مرغوبة ، فكيف تأتينا بمثل هذه المخاريق إلى مصر التي تعجّ بالسِّحر والسَّحَرة ؟» ، وأرسل في طلب بعض الصّبية ، فحوّلوا عصيّهم إلى ثعابين (תנינם) .

«فابتلعت عصا أهَرُون عصيّهم»[1] ، ויבלע מטה־אהרן את־מטהם .

لكن ابتلاع العصيّ لم يكن الآية الوحيدة ، بل إن عدم كبر حجم عصا أهَرُون منذ ذلك الحين قد أضاف إلى قيمة الآية .

* * *

(1) سفر الخروج – 7 : 12 .

الفصل الثاني
الآفات العشر

«كذا قال الرّب ، بهذا تعلم أنّي أنا الرّب . ها أنا ضاربٌ . . . ماء النّهر ، فأقلبه دَماً»[1] :

כה אמר יהוה בזאת תדע כי אני יהוה הנה אנכי מכה ... על־המים אשר ביאר ונהפכו לדם .

عندما يخطّط إنسان ليؤذي شخصاً أو أن ينتقم من عدوّ ، فهو يهاجمه بغتةً بغير إنذار . أما الله فليست هذه فعاله ، بل أنذر فَرْعوه بجميع الآفات التي أنزلها على مصر ، كي يتيح له فرصة ليتوب . فلماذا ضُربت المياه أولاً ؟ لأن المصريين كانوا يعبدون نهر النّيل ، وكان الرّب قال : «أضربُ الإله أولاً ثم شعبه» ، وينطبق على ذلك المثل القائل : «أضرب الآلهة أولاً ، فيرتعد الكهنة» .

الدّم

لماذا جازى الرّب المصريين بآفة الدّم ؟ لأنهم سفكوا دماء الأطفال الأبرياء ، ولذلك تحوّلت مياه أنهارهم إلى دم .

«ثم قال الرّب لمُوشيْه : «قُل لأهَرُون : «خُذ عصاك ومُدّ يدك على مياه مصر»»[2] ، קח מטך ונטה־ידך על־מימי מצרים .

---

(1) سفر الخروج – 7 : 17 .

(2) سفر الخروج – 7 : 19 ، وفي الترجمتين العربيتين : «على مياه المصريين» ، ظن التراجمة أن عبارة מצרים (مصرايم) بصيغة الجمع إنما تعني : المصريين ، بينما هي تسمية «مصر» الشائعة بالعبرية (جمع מצר الآرامية : الحدود والتّخوم) حتى اليوم . وثمّة مَن يرى أن العبارة تعني المجرى (مجرى النيل المتعرّج) ، ومثلها : المصران (الأمعاء) .

فلماذا لم يكن في وسع مُوشيْه أن يضرب النّهر ؟ ذلك لأن المياه حَمَتْه وحَرَسته عندما كان طفلاً عاجزاً يهجع في الصّندوق المصنوع من البَردي ، وترشدنا تعاليم الحاخامين إلى أن «البئر التي تستقي منها ماءك لا تقذف فيها الأحجار» .

الضّفادع

قد نميل إلى الاعتقاد أن الضفدع حيوان تافه ، لا شأن له في تقويم الكون . وهذا غلط ، فلكل كائن حي من وجوده غاية . والضفادع أضحت أداة لمعاقبة فَرْعوه ، فرغم أن نهر النّيل يفيض عادةً بالضفادع ، لم تكن تبتعد عن ضفّتيه . ثم قال الله : «أنتَ تقول : «النّهر هو لي» ، فالآن أريك أن حتى بيتك ليس لك ، فسوف تجوس به الضفادع ، وتبلغ حتى المعجن وتمكث في عجينك وتأكله» .

وسبّبت الضفادع للمصريين رَهَقاً أشدّ من مجرّد الخسائر الماديّة التي أوقعتها ، من جرّاء أصواتها المزعجة ، ولذلك ورد في التّوراه : «فصرخ مُوشيْه إلى الرّب في أمر الضفادع»[1] ، ויצעק משה אל־יהוה על־דבר הצפרדעים .

القمل

«قُل لأهَرُون . . . واضرب تُراب الأرض»[2] ، אמר אל־אהרן ... והך את־עפר הארץ .

فلماذا لم يضرب مُوشيْه بنفسه تُراب الأرض ؟

لأن مُوشيْه وارى في التّراب جثّة المصري الذي ألفاه يضرب رجلاً عبريّاً ، فأخفى التّراب فعلته . لذلك فإن الآفتين المتعلّقتين بالماء والتّراب تمّ إنزالهما على يد أهَرُون .

---

(1) سفر الخروج – 8 : 8 . وهذا التقسيم في التّوراه المسوراتية بالأصل ، أما في الترجمة السّبعينية (وعنها الترجمات العربية) فترد في 8 : 12 ، بسبب إلحاق 5 آيات من الأصحاح الثامن بالأصحاح السابع فيها .

(2) سفر الخروج – 8 : 12 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 16 .

ولماذا تمّ تسليط هذه الآفة على المصريين ؟

هذا لأنهم أكرهوا اليسْرَئيليين على كنس الطرقات وعلى العمل في الآجرّ والملاط . ولذلك انقلب تُراب الأرض إلى قَمل[1] . وكان السَّحَرة غير قادرين على ابتداع القَمل ، لأنهم كانوا يعجزون عن تشبيه الأشياء التي تصغر حجماً عن حبّة الشّعير ، فلهذا قالوا : «هو إصبع الله»[2] אצבע אלהים הוא .

أسراب الوحوش

«بكّر في الغَداة» ، إلخ[3] ، השכם בבקר .

قال الله لمُوشيْه : «هذا الرّجل يصرّ على معصيته ، برغم الآفات التي قد أنزلتها عليه . لذلك فقُل له إن الآفة الآتية ستكون أدهى من الأخريات كلّها مجتمعةً ، وقُل له أطلق بني يسرئيل» .

تجمهرت أسراب الوحوش[4] في البداية على بيت فَرْعوه ، لأنه كان أول مَن ظلم يسْرَئيل ، ثم على بيوت خدمه ، لأنهم احتذوا مثاله .

لماذا سُلّطت هذه الوحوش على المصريين ؟ هذا لأنهم كانوا يُلجِؤون اليسرئيليين إلى المخاطرة بأرواحهم في صيد الوحوش المفترسة .

ونرى أنه فيما ماتت الضّفادع بأرض مصر ، كان شأن الوحوش أنها رُفعت عن القوم ، فما هو وجه هذا الاختلاف ؟ هذا لأن الضفادع لا قيمة لها ، أما الوحوش فيمكن للمصريين أن ينتفعوا من فرائها .

---

(1) انظر سفر الخروج – 8 : 12 ، وفي الترجمة العربية عن السّبعينية : 8 : 16 . والقمل في العبريّة : כנם (كِجام) ، لكن في الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية للعهد القديم جُعلت العبارة بالعربية : البعوض . فكيف تراه يكون ذلك ؟ في العبرية عبارة أخرى مشابهة : כנימה (كجيماه) : حشرات – هوام ، ولكن لماذا البعوض بالذّات ؟

(2) سفر الخروج – 8 : 15 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 19 .

(3) سفر الخروج – 8 : 16 ، وفي الترجمتين الكاثوليكية والإنجيلية : 8 : 20 .

(4) العبارة في العبرية : ערב (عارُب) أي : أسراب الوحوش ، أو خشرم الذّباب . فالطريف أنها في الترجمتين العربيتين : الذّبان ! انظر سفر الخروج – 8 : 21–25 .

وَباء الماشية

لماذا سُلطت عليهم هذه المهْلكة ؟

بُغية إظهار أن الآفات كانت موجّهة ضدّ المصريين فحسب ، لأنه كما تُنبئنا التّوراه : «ومن مواشي بني يسرئيل لم يمت واحد»[1] . وحتى المواشي العائدة لأي عبري في حَوزة رجل مصري نَجَت ، وكذلك المواشي التي يشترك في مُلكها مصري ويسرئيلي في آن واحد .

القُروح

لماذا سلّط عليهم آفة القُروح ؟

لأنهم كانوا يجبرون اليسرئيليين على تنظيف دُورهم وأفنيتهم ، ممّا جعل دمائهم مُلتاثة تُنفط بالقُروح .

ولماذا كان السَّحَرة عاجزين عن الوقوف بين يدي مُوشيْه فيما يتعلّق بأمر هذه القروح والالتهابات ؟

لأنهم قدّموا المشورة بإلقاء كل صبي يولد لبني يسرئيل في مياه النّهر .

«وقسّى الرّب قلب فَرْعُوه»[2] ، إلخ ، ויחזק יהוה את־לב פרעה .

لما رأى الرّب أن الآفات الخمس التي كان قد أنزلها على فَرْعوه لم تؤدِّ به إلى التّوبة ، قال : «حتى لو شاء أن يتوب بعد ذلك ، فسأقسّي قلبه لكي ينال كامل جزاءه»[3] .

---

(1) سفر الخروج – 9 : 6 .

(2) سفر الخروج – 9 : 12 .

(3) هذا تفسير من أجَداه التّلمود لما يرد في الآية 16 من الأصحاح التاسع من سفر الخروج : «غير أني لهذا أبقيتُك لكي أريك قوّتي ، ولكي يُخبَر باسمي في جميع الأرض» . ويلاحظ هنا التشابه الكبير مع رواية القرآن الكريم لقصة النبي موسى عليه السلام وفرعون في سورة يونس – 92 : ﴿فاليوم نُنجّيكَ ببدنك لتكونَ لمن خلفكَ آيةً وإن كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون﴾ .

«ها أنا مُمطر غَداً مثل الآن»[1]، إلخ : הנני ממטיר כעת מחר .

جعل مُوشيه علامة على جدار بيت فَرْعوه ، قائلاً : «عندما تشرق الشمس يوم غد ، سيقع البَرَد في هذا الموضع ، لذا فابعث واجمع ماشيتك» ، إلخ .

مجدّداً تتجلّى لنا رحمة الله ، فهو حتى في أثناء غضبه لا يلبث على ميله إلى الأخذ بأسباب الرّحمة تجاه الأشرار ومواشيهم . وكان قصده من جائحة البَرَد إفناء المزروعات وليس الأرواح ، لذلك قام بتحذير الناس كيما يلجأوا بأنفسهم ومواشيهم إلى المنازل .

«ثم قال الرّب . . . مُدّ يدك نحو السّماء»[2]، إلخ ואמר יהוה ... נטה את ידך על־השמים .

ورغم أن «السّموات سمواتٌ للرّب» ، فإن «الأرض أعطاها لبني آدام» (المزامير – 115 : 16) .

قد يُصدر إمبراطور روما مثلاً مرسوماً يحرّم فيه على الرّومان زيارة سورية ويحرّم على السّوريين زيارة روما ، فكذلك عندما خَلَق الله الكون أعلن السّموات سموات الرّب ، ومنزلاً للرّبّانيين الأخيار .

«أما الأرض فقد منحها لأبناء البشر» ، ولذا فالمفترض أن تكون مكان إقامتهم . غير أن «ما شاء الله فعله فهو لا محالة كائن ، في السّموات والأرض ، في البحور وكل الأعماق» .

فلقد هبط إلى الأرض عند جبل سيناء ، وفي آن التكوين قال : «لتجتمع المياه إلى موضع واحد» ، فلمّا رأى ذلك أنه حَسَن ، حوّل البحر إلى يَبَس ، تماماً كما هو مكتوب : «وسار بنو يسرَئيل على اليَبَس في وسط البحر»[3] .

---

(1) سفر الخروج – 9 : 18 .
(2) سفر الخروج – 9 : 22 .
(3) سفر الخروج – 14 : 19 .

فبالطريقة ذاتها أعطى الله مُوشيْه الإذن بحكم السّموات ، وأن يمدّ يده نحوها ، وأن يُنزل عاصفة البَرَد على أرض مصر .

ولماذا عُوقبوا بالبَرَد ؟

لأنهم أجبروا اليسرئيليين على حراثة أراضيهم ، وبذر حبوبهم ، والعناية بأشجارهم ، وتأدية جميع الأعمال الوضيعة الثانويّة في فلاحة التّربة . لذلك أنزل الله عاصفة البَرَد هذه ليدمّر نتاج الأرض ، بحيث لا يتمكن المصريون من جني أي نفع من الجهد القسري لشعبه . فلمّا رأى الله أنهم لم يكترثوا بتحذيره ، وأهملوا إيواء مواشيهم في الملاجئ ، سبّب موت الماشية من جرّاء العاصفة .

وكانت كتل البَرَد كبيرة جداً ، كل منها بحجم رأس الطفل الرّضيع ، وعندما ترتطم بالأرض كانت تتفجّر ناراً وشرراً .

الجَراد

لماذا أنزل الله آفة الجراد على مصر ؟

لقد بَذَر اليسرئيليون الحقول بالحبّ ، فتمّ إنزال جائحة الجراد لتُهلك من الزّرع كل ما نجا من جائحة البَرَد .

كانت هذه الجائحة شديدة جداً لإرغام فَرْعوه على الإقرار : «لقد خطئتُ إلى الرّب إلهكما بأن لم أطلق بني يسرئيل» . «وإليكما (أي مُوشيْه وأهَرُون) ، إذ طردتُكما من بيتي» .

الظُّلمة

«لكن لجميع بني يسْرَئيل كان نورٌ في مساكنهم»[1] .
ולכל־בני ישראל היה אור במושבתם .

---

(1) سفر الخروج – 10 : 23 .

فلماذا لم يُكتَب : «كان نورٌ في أرض جُشن ؟» .

لأنه حيثما كان اليسرَئيليّون كان ثمّة نورٌ لهم ، ولكن للمصري وإن كان ماكثاً في حجرة واحدة مع اليسرَئيلي ، كانت ظلمةٌ حالكة .

موت الأبكار

«لا تعاود النّظر إلى وجهي»[1] ، השמר לך אל־תסף ראות פני .

هذه كانت كلمات فَرْعوه[2] ، عندما وقف مُوشيْه أمامه ليحذّره للمرّة الأخيرة من الهلاك النّازل به ، إن هو دام معارضاً خروج بني يسرئيل من أرض مصر . فأجاب مُوشيْه :

«نعم ما قلتَ . لا أعاودُ آتي إليك ، لكنك تأتي إليي ، وخدمُك وأنتَ ذاتك تتوسّلون إليّ وتركعون ، طالبين رحيلي من البلد ، فأرحل» .

ولمّا خشي بعض المصريين من مغبّة نبوءة مُوشيْه ، ناموا ليلتها في بيوت اليسرئيليين . لكن ضربة الموت أدركتهم ، فكان اليسرَئيلي يفيق من نومه فيلفي المصري إلى جانبه جثّة هامدة .

وكانت النكبة في أرض مصر عظيمة . فتوجّه فَرْعوه إلى مُوشيْه وأهَرُون ، وقال لهما : «قُوما !» . فأجابا : «ماذا يريد فَرْعوه منّا ؟» ، فصاح : «قُوما السّاعة فامضيا» .

فمضى اليسرَئيليّون من أرض مصر عشية اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ניסן ، وفي مثل هذه الليلة ذاتها لقي جيش سَنحَريب المُعسكِر أمام يروشَلايْم الهلاك على يدي الرّب . فاحتفل الملك حزقياه وسكّان المدينة المُحاصَرة بعيد العبور (الفصح פסח) بحسب أوامر الله ، وطفقوا يُرتّلون التّرانيم والتّهاليل (هَلّلويا) لاسمه المقدّس .

---

(1) سفر الخروج – 10 : 28 .

(2) سبق أن ذكرنا أن هذا هو وجه رسم الاسم في العبرية ، وليست المفردة مصرية بالأصل .

غير أن حزقياه كان يستولي عليه القنوط ، فقال :

«غَداة غدٍ قد تسقط المدينة» . ولكن إذا بهم عندما استيقظوا في الصّباح يرون جيش الغزاة وقد تمدّد جنوده صرعى في مُعسكرهم .

قبل إنزال البليّة الأخيرة ، أنذر الله فَرْعوه ، كما هو مكتوب : «وأقتلُ كلّ بكر في أرض مصر»[1] .

فلو شاء الله أن يفعل ذلك منذ البداية ، بدلاً من أن يجعله في خاتمة البلايا ، لكان هذا في وسعه ، لكنه رغب في زيادة شدّة البلايا واحدة إثر الأخرى ، ولذلك قد أنزل أدناها وطأة في البداية .

«فإن الرّب يجتاز في أرض مصر فيضرب كلّ بكر»[2] .

يُحكى أن ملكاً أرسل ابنه إلى بلد بعيد ، فاستقبله شعب ذلك البلد بحفاوة عظيمة ، وأحلّوه مكانة سامية ، ثم جعلوه حاكماً عليهم . فلمّا سمع أبوه بذلك قال : «كيف أردّ لهم هذا التكريم ؟ سأطلق على هذا البلد اسم ابني» .

ثم بعد مضي فترة من الوقت ، أتته الأخبار من البلد البعيد ، بأن الشعب قد خلعوا عن ابنه مكانته السّامية ، وجعلوه عبداً . ولذلك شنّ عليهم الحرب وخلّص ابنه .

ويوسيف هبط مصراً فجُعل عليها حاكماً . وكذلك حظي يعقوب بشأن عظيم ، وعند موته «ناح عليه المصريون سبعين يوماً» .

ولذلك ، سمّى الله مصر باسم جنّة عِدن ، كما هو مكتوب في التّوراه : «كجنّة الرّب مثل أرض مصر»[3] . ولكن عندما اضطُهد اليسرئيليون وحُوِّلوا إلى عبيد ، شنّ الله الحرب على مصر ، عبر البلايا العشر ، ومن خلال العاشرة قام بتخليص «ابنه» يسْرَئيل من ربقة العبوديّة .

---

(1) سفر الخروج - 12 : 12 .
(2) سفر الخروج - 12 : 23 ، 29 .
(3) سفر التكوين - 13 : 10 .

وخلال الليل ، بينما كان العبريّون يُرنّمون التّهاليل لله ، أتى فَرْعوه إلى المكان الذي يسكن به مُوشيْه وأهَرُون ، فصاح : «قُم فاخرج» ، إلخ . ثم انتشر الشعب ما بين المصريين ، وراحوا يطلبون على وجه العارية أواني من الذّهب والفضّة . أما مُوشيْه فطلب ضريح يوسيف واصطحب عظامه ، بحسب الوصية التي انتقلت إليه .

«وكان عند انقضاء الأربع مئة وثلاثين سنة»[1] ، إلخ ויהי מקץ שלשים שנה וארבע מאות שנה .

فهذه السّنون تُحسب منذ أن تجلّى الله لأبرَهام في الرّؤيا المعروفة باسم : «عهد الأشطار»[2] ، وأخبره بأن ذرّيته ستكون «غُرباء في أرض ليست لهم» . لكنهم مع ذلك عاشوا بمصر مئتين وعشرة أعوام فحسب . وفي الشهر واليوم ذاتهما اللذين دخلوا فيهما مصر ، كان خروجهم . وفي ذلك التاريخ أيضاً تم إطلاق يوسيف من سجنه ، وفي السنوات التالية شهد حصول معجزات عديدة لصالح شعب الله .

وفي عهد الملك حزقياه نَجَت يروشَلايْم من غزو سَنحَريب ، وخلال فترة الأسر البابلي نجا من نار الأتون كل من شدرخ وميشخ وعَبد نَجُو[3] ، كما نجا دانيئيل سالماً من عرين الأسد .

* * *

(1) سفر الخروج – 12 : 41 .
(2) انظر حول هذا العهد : سفر التكوين – 15 : 13 .
(3) حول خبر ذلك انظر سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .

الفصل الثالث
موت مُوشيْه

«ثم قال الرّب لمُوشيْه : «هو ذا أيامُك قد قَرُبت لكي تموت» »[1]. ואמר יהוה אל־משה הן קרבו ימיך למות .

ترد الإشارة على موت مُوشيْه في التُّوراه عشر مرّات :

«هو ذا أيامك قد قَرُبت لكي تموت» . (تثنية الاشتراع 31 : 14) .
«ثم مُتْ في الجبل» . (تثنية الاشتراع 32 : 50) .
«لأني أموت» .
«لأنّي عارفٌ أنه بعد موتي» . (تثنية الاشتراع 31 : 29) .
«. . . فكيف بالحريّ بعد موتي» . (تثنية الاشتراع 31 : 27) .
«. . . بارك بها بني يسرئيل قبل موته» . (تثنية الاشتراع 33 : 1) .
«وكان مُوشيْه ابن مئة وعشرين سنة حين مات» . (تثنية الاشتراع 34 : 7) .
«وكان بعد موت مُوشيْه» . (يهوشُوَع 1 : 1) .
«مُوشيْه عَبدي قد مات» . (يهوشُوَع 1 : 2) .

كان مُوشيْه نفسه يظن أنه ارتكب ذنباً يسيراً يُمكن الصّفح عنه[2]، لأن بني يسرَئيل عندما أثاروا غضب الله عشر مرّات ، عُفي عنهم من خلال دعائه ، كما هو مكتوب في التُّوراه[3] : «فقال الرّب : «قد صفحتُ حَسَبَ قولِكَ» » . ولكنه عندما تيقّن من أنه لن يُصفح عنه ، توجّه إلى الله ضارعاً :

---

(1) سفر تثنية الاشتراع – 31 : 14 .
(2) راجع سفر الخروج – 17 : 7 ، وسفر تثنية الاشتراع – 32 : 51 ، حول معصية مُوشيْه وأهرُون عند ماء الخصومة (مريباه) ، بأنه صرخ إلى الرّب لمّا خاصمه الشعب .
(3) سفر العدد : 14 : 20 .

«يا ملك السّموات ، إن شقائي ونَصَبي من أجل مصلحة يسْرَئيل شعبك واضح ومعروف أمامك . وتعلم كم جهدتُ لحثّهم على معرفة طريقك ، وعلى الإيمان باسمك القدّوس وتطبيق شريعتك المقدّسة . يا ربّ ، فكما شاطرتُهم معاناتهم ونكباتهم ، هَل لي أن أشاطرهم فرحهم ؟ هاهو ذا أوان انتهاء محنهم قد حلّ ، وسيطؤون أرض البركة الموعودة ، وأنتَ قلتَ لي : «لا تعبر نهر الأردن هذا» . يا إلهي الأزلي ، العظيم والعَدل ، إن لم تُجز لي دخول هذه الأرض المباركة ، فاسمح لي على الأقل أن ابقى على قيد الحياة في هذه الدّنيا !» .

فأجاب الله مُوشيْه قائلاً : «فإن لم تَمُت في هذه الدّنيا ، كيف لك أن تعيش في الحياة القادمة ؟» .

فانبرى مُوشيْه يقول : «إن لم تسمح لي بعبور هذا الأردن הירדן ، فدعني أحيا كبهائم الأرض التي تأكل من العشب وتشرب من الماء ، وتحيا وترى الدّنيا . فاجعلْ حياتي مثلها تماماً» .

فأجاب الله : «حَسْبُك ، لا تزد في الكلام معي في هذا الشأن» . (سفر تثنية الاشتراع 3 : 26) .

لكن مُوشيْه تضرّع مجدّداً يقول : «فدعني إذاً أعيش كالطيور ، التي تجمع قُوتَها في الصّباح ثم تعود في المساء إلى أعشاشها . لتكن حياتي مثلها تماماً» .

فقال الله ثانيةً : «حَسْبُك ، لا تزد في الكلام معي بهذا الشأن» .

فلمّا أيقن مُوشيْه أن أمر موته محتوم ، انبرى مُعلناً : «هو الصّخر الكامل الصّنيع ، الذي كل طرقه حكمة ، إله الحَقّ العَدل المستقيم»[1] .

«فمات مُوشيْه هناك في أرض مُؤاب ، بأمر الرّب»[2] .

والكتاب المقدّس يشهد على تقوى مُوشيْه : «ولم يقُم من بعدُ نبي في يسرَئيل كمُوشيْه ، الذي عرفه الرّب وجهاً لوجه» . (تثنية 34 : 10) .

---

(1) سفر تثنية الاشتراع – 32 : 4 .

(2) سفر تثنية الاشتراع – 34 : 5 .

والسّموات بكت وأعلنت : «الرّجل الصّالح رَحَل ، وليس بين النّاس مستقيم» .

ولمّا بحث يهوشُوَع عن صديقه ومعلّمه فلم يجده ، انتحب بمرارة وصاح : «أعنّي يا ربّ ، فالصّالح لم يعد موجوداً !» .

وأعلنت الملائكة : «لقد قضى بعَدل الرّب» ، فأضاف بنو يسْرَئيل : «وبأحكام الرّب ليسرئيل» . ثم أعلنوا جميعاً : «سيأتي بسلام ، وفي سريره يرقد بأمان كل مَن سار في دروب صلاحه» .

فلتكن ذكرى العَدل القويم مُباركة .

* * *

الفصل الرابع
مَجلّت (ميثاق) إستير

وحدث عندما مات نِبوخَذْناصَّر נבכדנאצר، أن ابنه مِرودَخ الشرّير طالب بحكم المملكة . لكن الشعب رفضوا تعيينه حاكماً ، قائلين : «كان أبوك فيما مضى انتُزع من طائفة بني البشر وأُجبر على أكل الحشائش والعُشب كبهائم الأرض لمدّة سبع سنين . ولمّا عددناه ميتاً نصّبنا في مكانه حكاماً ليتولّوا أمورنا ، فإذا به يعود ويحكم على هؤلاء الحكّام بالموت . فكيف لنا بعدُ أن ننصّبك ملكاً ؟ قد يكون من أمر أبيك كما كان في الأيام الخوالي ، فلعلّه يعود ثانيةً» .

فلمّا تكلّم الشعب على هذا النّحو مع مِرودَخ الشّرير ، مضى إلى قبر أبيه وانتزع منه جثّة الملك . وثبّت سلسلة حديدية حول قدميه ، وسحب جثّة أبيه عبر طرقات العاصمة ، ليُثبت للشعب أنه قد مات حقاً . كما هو مكتوب في سفر يشَعْياه : «أما أنت فطُرحتَ عن قبرك كفرع رِجس» (يشَعْياه – 14 : 19) .

عندها نصّب الشعب مِرودَخ الشرير ملكاً ، وقال دانيئيل للملك : «إن أباك نِبوخَذْناصَّر لم يفتح أبداً باب سجونه (أي أنه عندما كان يزجّ بشخص في السّجن كان حكمه عليه مؤبّداً) ، كما هو مكتوب : «الذي لم يُطلق أسراه من السّجن» (يشَعْياه 14 : 17) . فلمّا أُدين بنو يسرَئيل من الله بذنوبهم الكثيرة التي اقترفوها ، إذا بأبيك يأتي ويوقع الخراب بأرض يسرَئيل . لقد دمّر هيكلنا المقدّس ، وأرسل شعبنا أسارى ومنفيين إلى بابل . فكان من بينهم يهوياكين ملك يهوداه ، الذي قبع في السجن اثنين وثلاثين عاماً لأنه تقاعس عن تنفيذ أوامر الله . فالآن إني لأرجوك أن تُطلق سراحه . لا تكُ قاسي الفؤاد ! تذكّر عقاب أبيك عندما طغى وبَغى ، وقال : «إنه لا ملك ولا حاكم سواي» ، كما هو مكتوب : «أصعد فوق مرتفعات السّحاب ، أصير مثل العليّ» » . (سفر يشَعْياه 14 : 14) .

فأصغى مِرودَخ الشرّير[1] إلى كلام دانيئيل ونفّذ أمر الله ، فأطلق يهوياكين יהויכין ملك سبط يهوداه ، وفتح أبواب السّجن للأسرى الآخرين ومنحهم حرّيتهم . ونصّب يهوياكين ملكاً ، وألبسه أثواباً ملكية ، «وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته» (سفر الملوك الثاني 25 : 29) .

وانتقلت مقاليد المملكة من مِرودَخ إلى داريوش ملك مادي ، وكان ملك فارس أحَشْوِيرُوش[2] ابن داريوش ملك مادي . ومن بيت أحشويروش هذا طُردت وَشتي ابنة مِرودَخ الشرّير ابن نِبوخَذْناصَّر ، بسبب جُورها ، لأنها أجبرت النساء اليهوديّات على العمل في يوم شَبّات שבת (السَّبت) المقدّس .

وأحَشْوِيرُوش هذا هو ذاته الذي كان يأمر بتقديم النّبيذ الآتي من مئة وسبع وعشرين كُورةً على مائدة طعامه ، بحيث أن أهل هذه الكُوَر المئة والسبع وعشرين كانوا يشربون ، كلٌّ من نبيذ بلده وكُورته ، فلا يقربون بذلك شراباً غريباً أو ضاراً .

وكان أحَشْوِيرُوش ملكاً مجنوناً ، فقد أمر بأن : «فلتُطرد ملكتي ، أما أوامري فلا يجوز التقاعس فيها أبداً» . وفي أيام حُكم أحَشْوِيرُوش هذا تم بيع بني يسرَئيل بالفعل ، بغير قيمة مالية ، كما هو مكتوب : «مجّاناً بُعتُم» (سفر يشَعْياه 52 : 3) .

وفي أيام حُكم أحَشْوِيرُوش هذا تمّت الكلمات الواردة في متن التُّوراه : «في الصّباح تقول يا ليته المساء ، وفي المساء تقول يا ليته الصّباح» (سفر تثنية الاشتراع - 28 : 67) . وكان الملك أحَشْوِيرُوش هذا هو نفسه الذي صَرَف امرأته من أجل مصلحة صديقه ، ثم عاد فقتل صديقه من أجل مصلحة امرأته . فلقد طرد وَشتي امرأته تبعاً لنصيحة قدّمها له صديقه مهومان[3] ، ثم قتل صديقه هامان لمصلحة إستير امرأته .

---

(1) انظر حوله سفر يشعياه - 39 : 1 ؛ سفر يرمياه - 50 : 2 .

(2) هو الإمبراطور الأخميني كَيْخُسْرو الأول Xerxes I (486-465 ق . م) ابن داريوس الأول الكبير ، الذي أعاد تأسيس الإمبراطوريّة الأخمينية في فارس وميديا (مادي) .

(3) انظر مجلّت إستير - 1 : 10 ، من أسفار الكتوبيم ، القسم الثالث من أسفار اليهود .

وحدث في أيام أَحَشْوِيرُوش هذا أنه رغب بالجلوس على عرش شلومو ، أي كرسي مُلك شلومو الرائع الذي جُلب من يروشَلايم إلى مصر على يد شاشق ملك مصر . ومن يده انتقل إلى سَنحَريب ملك آشور ، ثم منه عاد إلى حزقياه ، ليُؤخذ مجدّداً بيد الفَرْعوه نخوه ملك مصر . ثم استولى عليه نِبوخَذْناصَّر ملك بابل من مُلك فَرْعوه ، ولمّا افتتح قورُش ملك مادي بلاد فارس ، جُلب العرش إلى شُوشَن وآل إلى مُلك أَحَشْوِيرُوش .

لكن أَحَشْوِيرُوش أمر بصُنع عرش جديد له ، فأرسل الصنّاع إلى مدينة الإسكندريّة ، وبقوا يعملون له بعرشه مدّة سنتين . «وفي السنة الثالثة من مُلكه ، جلس الملك أَحَشْوِيرُوش على كُرسي مُلكه ، وما عاد عرش شلومو يُستعمل بعد هذا ثانيةً»[1] .

«كان رجلٌ يهودي في شُوشَن العاصمة[2] اسمه مُرْدَخاي»[3] ، איש יהודי היה בשושן הבירה ושמו מרדכי .

فلماذا سُمّي مُرْدَخاي باليهودي ؟ وهو ليس من سبط يهوداه ، بل من سبط بنيامين ؟ سُمّي يهودياً لأنه كان مُلتزماً بتقوى الرّب ، شأن كل مَن كان من سبط يهوداه . وكان مُرْدَخاي حفيد شِمعي ، الذي أبقى الملك داود على حياته عندما استجرّ على نفسه عقوبة الموت بشتمه لقوانينه . ذلك أن داود تنبّأ بالمعجزة التي ستقع من خلال مُرْدَخاي في المستقبل الذي كان آنذاك طيّ الغموض .

وربّى مُرْدَخاي ابنة عمّه هَدَسّاه أو إستير אסתר . وكانت تُسمّى «هَدَسّاه» הדסה (وهذا الاسم يعني «شُجيرة الآس») ، بسبب مزاجها الرّائق وطبيعتها اللطيفة ، اللذين يُشبّهان بالعَرف العُطري والبهاء الدّائم الخُضرة لشجرة الآس ، كما ورد في سفر يشَعْياه (55 : 13) : «عوضاً عن الشّوك ينبت سَرو ، وعوضاً عن القُرّاص يطلع آس» .

---

(1) اقتباس من مجلّت إستير – 1 : 3 .

(2) كلمة הבירה (هَبيراه) في العبرية تعني العاصمة أو القلعة ، لكن من غير الصّائب ترجمتها بالقصر كما في الترجمة الإنجيلية العربية للكتاب المقدّس : شوشن القصر .

(3) مجلّت إستير – 2 : 5 .

وتأويل هذه العبارة هو كما يلي : عوضاً عن هامان ، أي الشوك ، يزدهر السَّرو ، أي مُرْدَخاي . وعوضاً عن وَشتي ، المُشبّهة بالقُرّاص ، تتبوّأ إستير ، شُجيرة الآس ، مكانها على عَرش فارس .

كذلك فإن اسمها إستير אסתר ، قد تمّ انتقاؤه بعناية من اللغة الإغريقية : «إستاراه»[1] ، وهو يعني النّجم السّاطع . وأعمالها الصّالحة لم تنقطع طوال مدّة حياتها ، أما جمالها الفتّان فلم يكن يضارعه إلا محاسنها الرّوحيّة .

وقُبيل ولادة إستير مات أبوها ، وسرعان ما لحقت به الأم عندما تنشّقت الطفلة أنفاسها الأولى . فكان أن تبنّاها مُرْدَخاي ابن أخي أبيها ، وقام على تنشئتها كابنة له .

وبعد أن تزوّج الملك إستير كان متحرّقاً لمعرفة نَسَبها ، فسألها : «أين هم آلُك ؟ ها أنا ذا مُعدٌّ سماطاً فليحضروا عندي» . فأجابته إستير : «إنّك لملكٌ حكيم ، ولا ريب أنك تعرف أن أبوي ميتان ، فأرجوك يا سيدي لا تُحزن قلبي بهذه الأسئلة» .

«ثم كان أن عمل الملك راحةً للشّعب من دفع الضرائب السّنوية ، وأعطى عطايا «تليق بمقدرته» إلى كل أعيان دولته ، مُعلناً أنها تقدمات تُعطى على «شرف إستير» » .

وكان يتوخّى من خلال ذلك أن صدى هذا الإجراء واسم إستير سينتشران عبر الأمم ، فيصل بذلك إلى معرفة شعبها» . فلمّا أخفقت هذه الخطّة ، دعى بكل العَذارى الحَسَنات المنظر من مختلف الكُوَر مجدّداً ، وهو يحسب أن الغيرة قد تدفع إستير لإخباره عن أسلافها ، لكن ذلك لم يُجدِ فتيلاً . ولم تنبس إستير ببنت شفة عن حقيقة جنسها وشعبها[2] .

---

(1) في اللغة اليونانية : Αστηρ (أستير) أو Αστρο (أسترو) ، ومثلها في اللاتينية : Asteris ، والفرنسية : Astre ، والإيطالية : Stella ، والإسبانية : Astra . كذلك في الإنكليزية : Star ، والألمانية : Stern . لاحظ شبه الاسم مع «عشتار» Astartæ .

(2) سبب ذلك أن مُرْدَخاي كان أوصاها بالتكتّم على يهوديّتها ، مجلّت إستير – 2 : 20 .

«وفي تلك الأيام ، بينما كان مُرْدَخاي جالساً في باب الملك ، غضب بِغْتان وتِرِش»[1] ، إلخ .

قال الرّابي يُوحَنان : «يُحلّ الله الغضب في قلوب العبيد على أسيادهم لتحقيق العدل ، وكذلك يحلّ الغضب في قلوب الأسياد على عبيدهم للغاية عينها أيضاً . والمثال الأخير يتمثّل في تاريخ يوسيف ، كما هو مكتوب : «وكان معنا في الحبس غُلام عبري»[2] ، أما المثال السابق فيتمثّل في واقعة بِغْتان وتِرِش ، حاجبيّ الملك .

«فعُلم الأمر عند مُرْدَخاي»[3] ، ויודע הדבר למרדכי .

تكلّم الحاجبان بلغة غريبة ، وهما يظنّان أن مُرْدَخاي لا يفهم ما يقولان . غير أن مُرْدَخاي كان من بعض أعضاء مجلس السّنهدرين סנהדרין[4] ، رجلاً متعلّماً ، فكان يفهم ما يقولان تماماً .

قال أحد الحاجبين للآخر : «مُنذ أن تزوّج الملك إستير لم نعد ننعُم لا براحة ولا بسلام ، فقد صارت حركة الذّهاب والمجيء مُرهقة ، وسيكون خيراً لنا أن نقضي على حياته» .

فوافقه الآخر على رأيه ، لكنه أضاف : «ولكن كيف لنا أن نفعل ذلك ؟ أنا في نوبة حراسة ولا يمكنني المغادرة» . فقال الأول : «إذهب ، وأنا أقوم بأمر حراستي وحراستك معاً» .

ولذلك كُتب في متن الكتُوبيم : «ففُحص عن الأمر ووُجد صحيحاً» ، أي أن أحد الحاجبين وُجد متغيّباً عن موقعه .

---

(1) مجلّت إستير – 2 : 21 .
(2) سفر التكوين – 41 : 12 .
(3) مجلّت إستير – 2 : 22 .
(4) السّنهدرين : مجلس قوامه 71 من الحاخامات ، كان يقوم بمهمّة المحكمة العليا والهيئة التشريعية ، له هيئتان : السّنهدرين الأكبر סנהדרין גדולה (71 عضواً) ، والسّنهدرين الأصغر סנהדרין קטנה (23 عضواً) . وراجع ما كنا كتبناه عنه في المقدّمة كعنصر رئيسي في الهيكلية الدّينية اليهودية ، بحسب تشريع التلمود .

«بعد هذه الأمور»[1]، אחר הדברים האלה . فأيّة أمور هي ؟

أي بعد أن خَلَق الله العلاج من قبل أن يوقع الجراح ، وبعد أن أنقذ مُرْدَخاي حياة الملك من قبل أن يتم إعلان الأوامر القاضية بإهلاك شعبه .

بعد هذه الأمور عظّم الملك هامان ابن هَمداتا الأجاجي ، ورفّعه إلى مرتبة سامية في المملكة . لكنه لم يُرفّع إلا لتحلّ عليه التّهلكة . وكان مصيره كمصير الخنزير في مَثَل الحصان والفلو والخنزير .

كان لدى رجل حصان وفلو وخنزير ، وكان يكيل للأولين مقداراً محدّداً من العليق في كل يوم ، فكان ما ينالانه لا يزيد ولا ينقص ، أما الخنزير فيُترك له الحبل على الغارب ليأكل كما يحلو له . فما كان من الفلو إلا أن قال للحصان : «كيف يكون ذلك ؟ أعدلُ ما يجري ؟ نحن نكدّ مقابل طعامنا ، بينما يتقلّب هذا الخنزير العديم النّفع في الملذّات . يحقّ لنا أن نظفر بمقدار ما يناله هو من طعام» . قال الحصان : «رُويداً ، وسترى سبب ذلك قريباً بهلاك الخنزير» .

فلمّا حلّ الخريف تم ذبح الخنزير . قال الحصان : «أرأيتَ ؟ لم يكونوا يقدّمون الطعام للخنزير ليأكل على هواه ويشبع ، بل لتسمينه وذبحه» .

كان هامان من ذريّة عيْسَو مُباشرةً ، فأبوه هَمَداتا كان ابن سَرارخ ، وهذا بدوره ابن قوزاه ، ابن إفلوتَس ، ابن يوسيف ، ابن يوسيم ، ابن پيدوم ، ابن ماديه ، ابن بلائكان ، ابن إنتمروم ، ابن هَريدوم ، ابن شِجَر ، ابن نِجَر ، ابن پَرمَشتاه ، ابن فَيزَتاه ، ابن أجاج ، ابن سُمكي ، ابن أمالِك ، وأخيراً ابن إليفاز وهو بكر أبناء عيْسَو .

«لماذا تتعدّى أمر الملك ؟»[2]، מדוע אתה עובר את מצות המלך.

قال عبيد الملك الذين ببابه لمُرْدَخاي : «لماذا ترفض الجثوّ لهامان ، ضارباً بأوامر الملك عُرض الحائط ؟ ألسنا نجثو له ونسجد ؟» .

---

(1) مجلّت إستير - 3 : 1 .
(2) مجلّت إستير - 3 : 3 .

أجاب مُرْدَخاي : «إن أنتُم إلا حَمقى ، أجل . . لا عقل لكم . اسمعوا لي : أيجوز تعظيم من كان فانياً ، مصيره إلى التُّراب ؟ أيجوز لي أن أجثو لابن امرأة ، أيّامه معدودة ؟ في صغره يبكي وينتحب كالطفل ، وفي شيخوخته يتملّكه الأسى والتحسّر ، وأيامه مُفعمة بالسّخط والغضب ، وفي النّهاية يكون مآله إلى التّراب . أيجوز لي أن أجثو لمن كان مثله ؟ لا ، بل أسجد لله الأزلي ، ذي البقاء والخلود . لمن يتوسّد عروش السّموات ويُمسك الدّنيا في راحة كفّه . بكلمته يستحيل الضّياء إلى ظُلمة ، وبأوامر يشعّ النّور في أحلك الدّياجير ، بحكمته خلق الدّنيا ، وأرسى تخوم المحيطات ، فإليه يؤول خَلق الماء ، العَذب منه والمالح ، وهو يأمر الأمواج المتلاطمة بقوله : «اسكني ، لا تزيدي عن هذا الحدّ في الحركة ، كيما تبقى الأرض جافّة لأجل شعبي» . فله وحده ، خالق الكون ومدبّره ، أجثو وأسجد» .

وحنق هامان على مُرْدَخاي ، فقال له : «يا لك من عنيد ! أفلم يجثُ جدّك لجدّي ؟» .

أجاب مُرْدَخاي : «وكيف ذلك ؟ مَن من جدودي جَثا لجدّك ؟» . فقال هامان : «يعقوب جدّك ، جَثا لأخيه عيْسَو ، وهو جدّي السّالف» .

أجاب مُرْدَخاي : «لم يكن الأمر كذلك ، لأنني من نسل بنيامين ، ولمّا جثا يعقوب لعيْسَو لم يكُ بنيامين قد وُلد بعدُ . ولم يجثُ بنيامين لأحد حتى سَجَدَ نسله في الهيكل المقدّس ، عندما حلّت روح الله في بوّاباته المطهّرة ، واتّحد معه جميع بني يسرَئيل . ولذا فلستُ جاثياً لهامان اللئيم» .

«في الشهر الأول ، أي شهر«نيسان» ניסן في السنة الثانية عشرة كانوا يُلقون فُوراً פור (أي قُرعة) أمام هامان»[1] . فكان يُلقي الفُور «من يوم إلى يوم» . أولاً اختار اليوم الأول من الأسبوع لأجل إهلاك اليهود ، لكنه فيما بعد قال : «لا ، فالنُّور قد خُلق في ذلك اليوم ، وهذا قد يوافقهم . وفي اليوم الثاني خُلقَت جنّة عِدن ، مع كل الأعشاب والشّجر ، وفي اليوم الرّابع خُلقت الشّمس والقمر

(1) مجلّت إستير – 3 : 7 .

والنّجوم ، وكذلك جميع جيوش السّماء ، وهذا أيضاً يوافقهم . في اليوم الخامس خُلقت طيور السّماء ، وبينها الحَمام ، الذي استخدمه اليهود قُرباناً ، ولذا فهو لا يلائم إبادتهم . وفي اليوم السّادس خُلق آدام وحَوّاه ، أما اليوم السّابع فهو يوم «شَبّات» שבת (السَّبت) المقدّس لديهم ، الذي فيه العهد بينهم وبين الله» .

ثم جرّب طالعه بعد ذلك مع الشّهور . ففي شهر «نيسان» (أبريل) تم إطلاقهم من عبوديّتهم بمصر ، ووقعت أثناء ذلك عدّة معجزات لصالحهم . أما في شهر «إيّار» איר (مايو) فكان نزول المَنّ מן للمرّة الأولى من السّماء ، وفي ذلك الشهر أيضاً كانت هناك خمس آفات على وشك الوقوع . وخلال شهر «سيوان» סיון (يونيو) تلقّوا الوصايا العشر ، وعيّدوا لبضعة أسابيع . فلا واحد من هذه الشهور يلائم إذاً . ثم كان أن وقعت القُرعة التالية على شهر «تمّوز» תמוז (يوليو) ، غير أنه في ذلك الشهر دُمّرت أسوار يروشَلايْم ، فظنّ هامان أن ذلك قد يُحتسب بمثابة الجزاء الكافي لأي من ذنوبهم في غضون هذا الشهر ، فعدل عنه وألقى القُرعة ثانيةً . وقعت القُرعة التالية على شهر «آب» אב (أغسطس) ، ولكن في ذلك الشّهر كان موتان الجيل الأخير من الأجيال المحكوم عليها بالتّيه أربعين عاماً . كان زمن جزائهم قد انقضى عندها ، وفي ذلك الشّهر ذاته كلّم مُوشيْه الله وضَرَع إليه قائلاً : «أرني عزّتك» . فلهذا هو شهر معظّم لليسرئيليين ينبغي عدم اختياره لإفنائهم .

الشهر التالي كان «إيلول» אלול (سبتمبر) ، وفي هذا الشهر كان الصّعود الثالث لمُوشيْه إلى جبل الله ، ليتلقّى الألواح الحجرية الثانية . وكذلك خلال هذا الشهر تمت عمارة أسوار يروشَلايْم ، كما هو مكتوب في سفر نحمياه 6 : 15 : «وكمل السّور في الخامس والعشرين من شهر إيلول» .

أما شهر «تشري» תשרי (أكتوبر) فلن يكون ملائماً لهذا الغرض ، لأن يوم الدّينونة حينما يخشع بنو يسرئيل جميعهم في الصّلاة يقع ضمنه . وكذلك فلا يوافق الشهر التالي «حشوان» חשון (نوفمبر) هذا المخطط ، لأنه فيه أُطلقت مياه الطوفان على الأرض وتمّ إنقاذ نُوَح وأهل بيته . وخلال شهر «كسليف» כסלו

(ديسمبر) أُرسيت أسس الهيكل . وفي «طيبت» טבת (يناير) حاصر نبوخَذْناصَّر يروشَلايْم ، وهذا أيضاً كان بمثابة جزاء كاف لذلك العهد . وكذلك خلال هذا الشهر أحلّت الأسباط الأحد عشر السّلام مع سبط بنيامين . وكذلك فشهر «شباط» שבט (فبراير) لم يقع فيه أي ذنب يستحقّ سخط الله تجاه شعبه . لكنه لمّا أتى على شهر «آدار» אדר (مارس) انبرى قائلاً : «ها قد نلتُك الآن ، كسمكة من البحر» (حيث أن طالع كوكب الشهر تمثّله سمكتان) . ففي هذا الشهر مات مُوشيْه مؤدّي الشّريعة ، فعدّه هامان شهراً رديء الطالع لبني يسرَئيل . لكنه نسي أيضاً أن مُوشيْه وُلد أيضاً في «آدار» ، في اليوم السابع من الشهر .

«فقال هامان للملك أحَشْويْروش»[1] : ויאמר המן למלך אחשורוש

«ثمّة شعب متشتّت ومتفرّق في بلادك ، غير أن سننهم مغايرة للأمّة التي يعيشون فيها . فهم لا يختلطون بنا أو يشاركوننا حياتنا ، وهم لا يتزوّجون من بناتنا ، ولا يعطون أبناءنا زوجات من بناتهم . وهم لا يسهمون في بناء الدّولة ، لأن لهم أعياداً كثيرة يقعدون فيها ويتقاعسون عن الحركة . وهم يخصّصون السّاعة الأولى من كل يوم للصّلاة : «اسمع يا يسرَئيل ، الرّب واحدٌ أحَد» . وفي السّاعة الثانية أيضاً يرتّلون التّرانيم ، وكثيراً من الوقت يضيّعون في الصّلوات والتّسابيح . وفي اليوم السابع من كل أسبوع يحتفلون بـ «يوم شَبّات» ، ويمضون نهاره في كُنُسهم يقرأون في توراتهم وكتب نبيّيهم ، وكذلك في لَعنك أيها الملك . وهم يُدخلون أبناءهم في عَهد الجسد[2] عندما يبلغون اليوم الثامن من العمر ، ويداومون على كونهم شعباً مختلفاً عن سواهم إلى الأبد . وفي شهر «نيسان» يحتفلون بعيد يسمّونه «عيد العبور» (الفصح) ، ينبذون فيه الخميرة من بيوتهم ، وينبرون قائلين : «كما ننبذ الخميرة من بيوتنا ، ليُنبذ هذا الملك اللئيم من أمامنا» . ولهم الكثير من مواسم الصّوم والأعياد ، يقومون فيها جميعاً بلَعنك أيها الملك ، ويَدعون عليك بالموت وبسقوط مملكتك . فها قد قام مرّة ما ملكٌ ، هو نبوخَذْناصَّر ، فدمّر هيكلهم وخرّب مدينتهم العظمى يروشَلايْم ، وساق السّكان

---

(1) مجلّت إستير – 3 : 8 .

(2) المقصود بذلك سنّة الختان ، راجع سفر الخروج – 21 : 4 .

منها إلى المنفى . ومع ذلك ، بقي غرورهم وأنَفَة نفوسهم على حالهما . واعلم كذلك أن أسلافهم هبطوا مصراً ، وعدّتهم سبعون رجلاً ، ولمّا صعدوا منها كانوا يعدّون ست مئة ألف بالتّمام والكمال ، هذا ما خلا نساءهم وأطفالهم . وبين هذه الأمّة ثمّة رجال من كبار التجّار ، يتعاطون البيع والشراء ، لكنهم لا يعملون سُنن الملك ولا المملكة . فما الجدوى من وجود مثل هؤلاء القوم متفرّقين عبر بلاد مملكتك ؟» .

وتابع هامان قائلاً : «فإن حَسُن في عيني الملك ، فليكتب أمراً بأن يُهلكوا ويُبادوا من بيننا» .

فأجاب أحَشْويروش : «ليس بوسعنا أن نفعل ذلك . فإلههم لم يتخلّ عنهم ، ولقد تغلّبوا على أقوام هم أعظم منا شأناً وأقوى يداً . لا يمكننا الأخذ بمشورتك في هذا الشأن» .

لكن هامان بقي مواظباً على الإلحاح بالشكاية على اليهود تجاه الملك ، بُغية حثّه على إهلاكهم بالكلّيّة . وأخيراً ، قال أحَشْويروش : «طالما أنك ألححتَ عليّ إلى هذا الحدّ حول هذا الشأن ، فسأدعو وزرائي ومستشاريّ وحُكمائي ، وأطلب رأيهم» .

فلمّا استُدعي هؤلاء بين يدي الملك ، طرح عليهم الأمر وسألهم : «ما هو رأيكم الآن ، أنُهلك هذه الأمّة أم لا ؟» .

فأجاب الحكماء بالإجماع قائلين :

«لو أن بني يسرَئيل تمّ اجتثاثهم من الوجود فستزول الدّنيا ذاتها بالكلّيّة ، لأنه على فضل بني يسرئيل والشريعة المنزّلة عليهم تقوم الحياة الدّنيا[1] . أفلم يُخصّ هذا الشعب بالقُربى من الله (النّسَابة) ؟ «لبني يسرَئيل الشعب القريب

---

(1) في هذه النّصوص الجدليّة المُصاغة بطريقة توفيقية نموذج حيّ لعملية النسج النصّي ، لنَسْب القُدسية والأفضليّة لشعب ما دون سواه . وهذا ما نراه بحذافيره في التراث الديني لكافّة الشعوب دون استثناء ، ويسمّيه البعض : فنّ صناعة المقدّس . ومثل هذه النّصوص من أجَداه التّلمود تحمل بجلاء لمسات المفسّرين المُضافة إلى التّوراه .

إليه»[1] . وليس هذا فحسب ، فهم يُسمّون أيضاً أولاد الرّب كما هو مكتوب : «أنتم أولادٌ للرّبّ إلهكم» בנים אתם ליהוה אלהיכם (التثنية 14 : 1) . فمَن ذا الذي يُفلت من سخطه إن هو رفع تجاه أولاده يداً ؟ لقد جُوزي فَرْعوه بسبب سلوكه ضدّهم ، فكيف لنا نحن أن ننجو من هذ الجزاء ؟» .

فقام هامان وأجاب على كلامهم قائلاً :

«إن الإله الذي تسبّب بموت فَرْعوه وجيوشه قد شاخ ودبّ إليه الضّعف ، وقواه خارت وذَوَت . أولم يدمّر نبوخَذْناصّر هيكله وساق شعبه إلى المنفى ؟ فلماذا لم يحُل دون ذلك إن كان على كل شيء قديراً ؟» .

وعن طريق مثل هذه المساجلات والنّقاشات ، تمكّن هامان من تبديل آراء الحكماء ومشوراتهم ، فتمّ له كتابة المراسيم القاضية بإجراء المذبحة ، حَسَب ما أمر به .

فلمّا علم مُرْدَخاي كل ما عُمل[2] ، شقّ ثيابه ولبس مِسحاً وحثا على نفسه الرّماد ، وناح مُرتاعاً ، وقال : «ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا على هذا المرسوم الشّديد . ولا حتى نصف شعبنا ينجو ، لا ولا ثلثه أو ربعه ، إنما المفروض اجتثاثه بأكمله . ويلٌ لنا ، ويلٌ لنا !» .

فلمّا أبصر اليسرئيليّون نُواح مُرْدَخاي وسمعوا كلامه ، عقدوا اجتماعاً يضمّ حشداً كبيراً من النّاس ، فخاطبهم مُرْدَخاي بما يلي :

«أنتم يا بني يسرئيل ، أيها المُختارون من أبينا الذي في السّموات ، ألستم تعلمون بما قد جرى ؟ ألم تسمعوا بالمرسوم الصّادر في حقّنا ، بأن هامان والملك قد أمرا بإهلاكنا من وجه الأرض ؟ ليست لنا الآن روابط وديّة نعتمد عليها ، ولا أنبياء يدعون لنا ، ولا مدينة نلجأ إليها . بل نحن قطيعٌ بلا راعٍ ، ونحن كسفينة في البحر بلا ربّان ، وكأيتام بلا أب ، أجل ، كرُضّع فقدوا أمّهم» .

---

(1) مزامير داود – 148 : 14 .

(2) انظر مجلّت إستير – 4 : 1 . وهناك بالطبع زيادات كثيرة من أجَداه التّلمود على أسفار الكتوبيم ، لذا يحسُن متابعة النّص هنا على متن الأسفار اليهودية (تَنَخ) .

ثم حَمَلوا تابوت العهد الذي به تُودَع صُحُف الشريعة ، في شوارع مدينة شُوشَن ، ووشّحوه بألوان الأسى والحداد . وفتح مُرْدَخاي الصُّحُف وراح يقرأ هاتين الآيتين من سفر تثنية الاشتراع (4 : 30) : «عندما ضُيِّق عليك وأصابتك هذه الأمور كلّها في آخر الأيام ، ترجع إلى الرَّب إلهك وتسمع لقوله (31) لأن الرَّب إلهك إلهٌ رحيم» ، בצר לך ומצאוך כל הדברים האלה באחרית הימים ושבת עד־יהוה אלהיך ושמעת בקלו : כי אל רחום יהוה אלהיך .

وقال مُرْدَخاي : «يا شعب بيت يسرَئيل ، لنحذو حذو أهل نينوى ، عندما أُرسل يوناه بن أميتاي ليُنادي بانقلاب عاصمتهم[1] . فلقد قام الملك عن عرشه ، واستبدل أثوابه الملكية بمُسوح ورماد ، ونادى بصوم . ولم يذُق بشر ولا بهيمة ولا ماشية ولا قطيع طعم الزّاد أو ينالوا شربة ماء . «فلمّا رأى الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرّديئة ، ندم الله على الشّرّ الذي تكلّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه» (سفر يُوناه 3 : 10) . فلننذُر نحن أيضاً صوماً على سبيل الاستغفار ، فإذا نجا هؤلاء وهم وثنيّون ، فما بالنا نحن أبناء أبرَهام ، أليس حرياً بنا دون سوانا أن نتوب عن طرقنا الرّديئة ونؤمن بمغفرة إلهنا الرّحيم ؟ ألا تراجعوا . . تراجعوا يا آل بيت يسرَئيل عن طرقكم الضالّة ! فعلامَ تموتون ؟»[2] .

فلمّا أتم كلامه هذا ، خرج مُرْدَخاي إلى المدينة وصَرَخ صرخةً عظيمةً مُرّة[3] .

فكان بيت يسرَئيل مملوءاً رُعباً من أمر الملك . واجتاح الأسى عتبة دار كل يهودي ، وأناخ جوّ من الكَدَر على كل كُورَة .

---

(1) راجع سفر يوناه من أسفار النبيين المتأخرين ، 3 : 1–4 . والنبي يُوناه بن أميتاي هذا يرد اسمه في تراثنا الإسلامي : النبي يُونس (كما في الإغريقية : يوناس Ιωνας) ، بينما يرد في الترجمتين العربيتين للأسفار اليهوديّة : يُونان . فما هي الحكمة من تصحيف اسمه ، وهو في العبرية «يُوناه» : יונה בן־אמתי ؟ هذا الأمر بحاجة إلى بحث ، والسّبب نراه في اشتهار التّرجمة اليونانية السّبعينية وحدها للتّوراه إبّان تنزيل القرآن الكريم .

(2) هذا كلّه زيادة على متن مجلّت إستير ، من إضافات أجَداه التلمود .

(3) عودة إلى نصّ متن مجلّت إستير – 4 : 1 .

وكان أن قام أحدهم بزيارة صديق فارسي له والتمس منه أن يستخدم نفوذه لإنقاذ حياته وحياة أسرته ، قائلاً : «أنا وامرأتي وأولادي نكون لك عبيداً ، لكن أنقذ حياتنا» .

فأجاب الفارسي : «وكيف لي أن أفعل ذلك ؟ إن الأمر الملكي ينصّ على أن أيّ فارسي يؤوي يهودياً سيلاقي حتفه معه» .

فرحل اليهودي بقلب كسير ، وهو يقول : «كيف تُراها ستحقّق إذاً كلمات التُّوراه (الشريعة) القائلة : «فتُباعون هناك لأعدائك عبيداً وإماءً وليس مَن يشتري» ؟» (سفر التثنية – 28 : 68) .

في كل يوم كان الشعب يحسبون مرور الوقت بقولهم : «بقي لليهود في هذه الحياة من الوقت كذا وكذا» ، وهكذا تحقّقت آية أخرى من التُّوراه : «وتكون حياتُك معلّقة قُدّامك وترتعبُ ليلاً ونهاراً ولا تأمن على حياتك ، وفي الصّباح تقول : يا ليته المساء ، وفي المساء تقول : يا ليته الصّباح ، من ارتعاب قلبك الذي ترتعب ، ومن منظر عينيك الذي تنظر» (سفر التثنية – 28 : 66–67) . ومع مرور كل يوم كان النّواح يتزايد والأمل يلوح ذاوياً أكثر فأكثر .

إن فقدنا قريباً أو صديقاً عزيزاً ، فإن أسانا يكون في بادئ الأمر شديداً ، لكنه مع مضيّ كل يوم يفقد وطأته إلى أن نحوز العزاء والسّلوى . لكن كم كان الأمر مغايراً في حكاية اليهود المُدانين بالموت ! ففي كل يوم كان العويل يشتدّ ، لأن كل يوم يمضي كان يقرّبهم من ساعة هلاكهم .

ولقد كان عمل أحَشويروش بتوكيل خاتمه إلى هامان ذا مفعول أشدّ وأبلغ في إذكاء مشاعر التّوبة لدى شعب يسرَئيل من كلام أنبيائهم الثمانية والأربعين . فلقد نها الأنبياء شعب يسرَئيل عن عبادة الأوثان وحثّوهم على ضرورة الاستغفار لكن كلامهم مع ذلك لم يلاق آذاناً مُصغية[1] ، أمّا عند انتقال خاتم الملك إلى هامان ، سرعان ما خشعت الأفئدة إلى سماع نداء التّوبة المجلجل .

---

(1) في تاريخ اليهود القديم بأسفار التُّوراه والنبيئيم والكتوبيم سلسلة متّصلة من الانكفاء عن طريق العبادة ، يعقبها ظهور نبي يُنذر عذاباً وخراباً ، ويقع ذلك لتعقبه رحمة .

لكن القدر كان يبيّت لهامان جزاءً وِفاقاً . وثمّة قولٌ مأثور للرّبّانيين : «إن سقط حجر على إبريق فإن الإبريق ينكسر ، وإن سقط الإبريق على الحجر فإن الإبريق ينكسر أيضاً» . في الحالين كليهما يكون مصير الإبريق الدّمار ، فهذا أيضاً شأن أعداء يسرَئيل ، لأنه حتى عندما يضلّ بنو يسرئيل عن جادّة الصّواب ، فإن مَن يُسخّرهم الله لعقابهم يلقون هم أيضاً جزاءً أليماً ، كما جرى في حالة نِبوخَذْناصَّر وتيطُس وهامان ، إلخ .

«فدخلت جواري إستير وحجّابها وأخبروها (بحزن مُرْدَخاي) . . . فدَعَت إستيرُ هَتاخ ، وأعطته وصيّةً إلى مُرْدَخاي لتعلم ماذا ولماذا . . . فأخبره مُرْدَخاي بكل ما أصابه»[1] .

ثمّة حُلم حلم به مُرْدَخاي في السنة الثانية من ولاية الملك أحشويروش ، تذكّره الآن ورواه لهَتاخ : «كان هناك زلزال هزّ الدّنيا ، وظلمة وعواصف عظيمة أرعبت الكائنات . كان هناك وحشان هائلان يخوضان قتالاً مُميتاً ، فأدّت جَلَبة الصّراع إلى إصابة الأمم بالارتجاف من الرُّعب . وفي وسط الأمم كان ثمّة شعبٌ صغير ومستضعف ، وكانت الأمم الأخرى تضمر له الشّرّ وتتمنّى زواله من وجه الدّنيا . وحلّ يأسٌ عظيم على هذا الشعب ، فصرخوا إلى الله بقوّة طالبين النّجدة والحماية . ثم انبجست عين ماء صغيرة ما بين الوحشين المتقاتلين ، وراح حجمها يتعاظم إلى أن لاح بكبر البحر واتّساعه ، حتى بَدَت وكأنها ستُحيق بالمعمورة . ثم أشرقت الشمس بنورها الوضّاء على الأرض ، وإذا بالأمّة المُستضعفة تنعم بالسّلام وتقيم بأمان ، أما الأمم الأخرى العظيمة فقد تلاشت أطلالها وخرائبها حولها» .

وكان قد روى هذا الحُلم من قبل لإستير ، فعاد الآن وأرسل للملكة عن طريق رسوله يقول : «دُونكِ فلتذكري الحُلم الذي كنتُ رويتُه لك في طفولتك . فلتقومي ، ولتضرعي إلى الله وتلتمسي منه الرّحمة ، ثم فلتمثلي أمام الملك وخاطبيه بجرأة في قضية شعبك وأسلافك» .

---

(1) مجلّت إستير - 4 : 4-7 .

وأرسل إلى إستير فوق ذلك يقول : «لا تخيّل لك نفسك الأمور فتقولي : «الملك اختارني ملكةً له ، ولهذا لستُ بحاجة أن أدعو بالرّحمة لبني يسرَئيل» . فإلى المنفى ستُحملين كبقيّة الشعب ، وهذا الأمر القاضي بإهلاك البعض يقضي أيضاً بإهلاك الجميع . لا تفتكري في نفسك أنك تنجين دون جميع اليهود . ولتعلمي أن خطيئة جدّك الأكبر شاؤول هي السبب في محنتنا اليوم . فلو كان أطاع كلام صموئيل لما كان وُلد من ذرّيته هامان الشّرير الذي يتبع عائلة عماليق . ولو أن شاؤول قتل أجاج ، لما كان ابن هَمَداتا اشترانا بعشرة آلاف طالن فضّي (وَزنة) ، ولما كان الرّب أسلم بني يسرَئيل إلى أيدي الظالمين . لكن مُوشيه دعا الرّب من أجل يسرَئيل ، ويهوشُوَع أزعج عماليق . لذا ، فقومي وادعي أمام وجه أبيكِ في السّموات ، فإن الله الذي أنزل حكمه العادل بعماليق سيفعل الأمر ذاته بنسله الشرّير . من الثلاثة ظالمين لبني يسرَئيل ينحدر نَسَب هامان : فأولاً عماليق ، الذي كان أول من حارب يسرَئيل ، والذي لاقى الهزيمة على يدي يهوشُوَع . وبعده سيسرا ، الذي بَسَط يداً حديديّة على أسلافنا ولاقى جزاءه على يد امرأة ، هي يائيل . وأخيراً جُليات ، الذي تحدّى جُند يسرَئيل فأذلّه ابن يشّاي . لهذا ، لا تكفّي عن الدّعاء والضراعة ، إذ أن الله ما برح يستمع للواعج القلب التوّاب ، وكرماً لأسلافنا سوف يُبسط علينا رحمته . فلقد خلّصهم من أعدائهم لمّا انقطعت بهم السُّبُل . لهذا فاضرعي ، ولا تظنّي أنك وحدكِ من بين شعبِك جميعه ستؤولين إلى السّلامة» .

وفي اليوم الذي أمر فيه مُرْدَخاي إخوانه بالصّوم والخضوع أمام الله ، تلا الضّراعة التالية :

«يا إلهنا وإله آبائنا ، الجالس بعَرش العزّ ! يا ربّ الكون ، أنتَ تعلم أنني لم أكُ بسبب التكبّر والاستعلاء أحجمتُ عن الرّكوع أمام هامان ! إنني لا أخشى إلا إيّاك ، وأغار على مجد حضرتك ، فلذا لا يجوز لي أن أقدّم تشريفك لبشر من لحم ودم ، إلى مخلوق من مخلوقاتك . يا الله ، نجّنا من يده ودع قدميه تقعان في الأُحبولة التي نصبها لنا ! ودع العالم يعرف يا مخلّصنا ، بأنك لم تنس العهد الذي يشدّ من أزرنا ويقوّينا في شَتاتنا» .

«ولكن مع ذلك أيضاً ، متى كانوا في أرض أعدائهم ما آيَسْتُهم ولا كرهتهم حتى أبيدَهم وأنكُث ميثاقي معهم ، لأني أنا الرّبّ إلههم»[1] .

فلمّا تلقّت إستير رسالة مُرْدَخاي ، أمرت هي أيضاً بصوم ، وأبدلت حُللها الملكيّة بمُسوح ورَماد حزن ، وطأطأت برأسها أمام الرّب ، بهذا الدّعاء المخلص : «يا إله يسرَئيل ، منذ بدء الأيام حكمتَ الكون ، وكل هذه الدّنيا وما فيها خلقتها يد قُدرتك . فإليك تضرع أمَتُك بالرّجاء ! إني وحيدة يا الله ، لا أب لي ولا أم ! وحالي كما المعوزة ، تدور بالكدية من باب إلى باب ، فها قد قصدتُ باب رحمتك ، من شبّاك إلى شبّاك في بيت أحَشويروش[2] . فمنك وحدك يُرتجى العَون والخلاص . يا أب مَن لا أب له ، كُن إلى يمين اليتيمة ، أتوسّل إليك ، أعطها رحمةً ونعمةً في عيني أحَشويروش ، لعلّه يتأثّر فيعطيها سؤلها في شأن حياة شعبها . «ليكن كلام فمي وابتهال قلبي مقبولاً أمامك يارب ، يا صخرتي ومخلّصي . آمين» » .

«وحدث في اليوم الثالث»[3] ، ויהי ביום השלישי . .

بعد أن كانت إستير صامت ثلاثة أيام ، قامت في اليوم الثالث من الرّماد الذي اتّشحت به ، وخلعت عنها مُسوحها ، وتزيّت بحُللها الملكية البهيّة ، مُرتدية أروع حليّها المصنوعة من الذّهب والأوفير والجواهر النّفيسة ، وتهيّأت للمثول بين يدي الملك . غير أنها قبل ذلك ، بصوت ملؤه الأسى والجيشان ، توجّهت مرّة ثانية إلى العليّ القدير خفيةً تدعو :

«يا إله أجدادي أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، ويا إله بنيامين ، إليك أتوجّه وإيّاك أدعو ! أدعوك قبل أن أطالب زوجي أحَشويروش الملك متوسّلةً من أجل شعبك بني يسرَئيل ، الذين ميّزتهم عن باقي الأمم ، والذين أعطيتهم شريعتك المقدّسة . شعبك المختار يا الله ، الذي يسبّح اسمك في كل يوم ثلاث مرّات ،

---

(1) تضمين من سفر اللّيويين – 26 : 44 .

(2) كان من عادة اليهود قديماً أثناء الدّعاء أن يقفوا قرب شبّاك ويتطلّعوا إلى السّماء . وذلك مدوّن في سفر دانيئيل (6 : 11) : «وكُواه مفتوحة في عُلّيته نحو يروشَلايم» .

(3) مجلّت إستير – 4 : 4–7 .

قائلين : «قُدّوس قُدّوس قُدّوس ربّ الجيوش ، مَجدُه ملء الأرض كلّها»[1] ، קדוש קדוש קדוש יהוה צבאות מלא כל־הארץ כבודו . فكما نجّيتَ حَنَنْياه وميشائيل وعَزَرياه من الأتون المُستعر[2] ، ودانيئيل من أشداق الأسود ، نجّنا الآن من الأعداء الذين يتربّصون بنا لإهلاكنا . أرجوك أن تعطني نعمةً في عيني سيدي الملك . من خلال خطايانا يا ربّ يحقّ علينا العقاب ، أجل ، نحن من تسري في عروقنا دماء أبرَهام ، ولكن ممّا لا ريب فيه أن الأبناء ينبغي ألا يتحمّلوا خطايا الآباء ! فإن أثرنا سخطك ، ما هو ذنب أصحاب الطّوايا الحسنة والصّغار الرّضّع أن يُدانوا مثلنا بالموت ؟ أوّاه ، فلتذكر كرامة أبرَهام في شأن خلاصنا ! عشرة مرّات عرضته أمام التّجربة ، فبقي على إيمانه الحقّ بك . فلتحم أبناء خُلصائك المحبوبين أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، وأمِطْ عنهم الأذى الذي أحاطهم به هامان» .

وانثالت إستير تبكي وتنشُج بمرارة ، وعجز لسانها عن النُّطق بالكلمات التي احتبست في شفتيها . فقالت في نفسها : «أمّا الآن فأذهب إلى الملك . أوّاه يا ربّ ، فاجعل ملائكة الرّحمة تسبق خطواتي ، واجعل بركة أبرَهام تتقدّمني ، وكرامة يصحاق تشدّ من عُودي المرتجف . اجعل لُطف يعقوب في فمي ، ونقاء يوسيف في نُطق لساني . وكما استمعتَ إلى صوت يُونَاه عندما ناداك ، استمع الآن إلي . يا الله ، يا مَن تُدرك أبصاره أدنى خفايا القلوب ، اذكُر كرامة الصّالحين الذين عبدوك بالتّقوى والإيمان ، وبشفاعتهم لا تردّ رجائي الآن خائباً . آمين» .

واصطحبت إستير معها اثنتين من خادماتها اللتين كانتا بانتظارها ، ودخلت بلاط الملك . وكانت تتّكئ إلى ذراع الواحدة منهما ، فيما تتبعها الأخرى وهي تُمسك بهُدب ثوبها ، لئلا يمسّ قماشه الموشّى بالذّهب أديم الأرض . وكتمَت إستير حزنها في حنايا قلبها ، بينما لاح على مُحيّاها بريقٌ وَضّاء ، وعلى إهابها سيماء بهجة .

---

(1) سفر يشعياه – 6 : 3 .

(2) انظر خبر ذلك في سفر دانيئيل ، الأصحاح الثالث .

وحدث عندما أبصر الملك بها واقفة في البلاط أنه استشاط غضباً لما رآها تتجاوز الأنظمة والأعراف . فنظرت إستير ، ولمحت شرر الغضب في عينيه ، فارتاعت بشدّة ، وهَوَت على خادمتها التي تتكئ عليها . فلمّا رأى الله انهيارها أشفق على ما تعانيه هذه اليتيمة ، وأعطاها نعمةً في عيني الملك . فسُرعان ما زال الغضب عن محيّاه ، وقام من كرسيّه ، وتقدّم نحو إستير واعتنقها وقبّلها . طوّق بذراعه عنقها ونظر إلى عينيها ، فلمّا أبصر فيهما الارتياع قال : «ما لك يا إستير الملكة ؟ ممّ تخشين ؟ أنظمتنا ليست تسري عليكِ ، فأنتِ محبوبتي ، لِمَ لم تتكلّمي عندما وقعت عيناكِ عليّ ؟» .

فأجابت إستير : «لأنني يا سيّدي عندما نظرتُ إليك ، ارتعدتُ من روعة سُلطانك وهيبة مُلكك» .

* * * * *

كانت لإستير ثلاث غايات من وراء دعوة هامان إلى الوليمة مع الملك :

فأولاً : لم تكن ترغب بجعل هامان يظن بأنها كانت على علم بمَفسدته ، وبأنها كانت تتربّص به ، وهو ما كان سيشكّ به فيما لو علم بأن هَتاخ قد سعى برسائل بينها وبين مُرْدَخاي .

وثانياً : كانت ترغب ، في سبيل إنجاح خطّتها ، بأن تشعل نار غيرة الملك من هامان . فمن حيث المنطق سيسأل نفسه لماذا تقدّمت إلى دعوة هامان وحده ، مُفردةً إيّاه عن باقي الأمراء ومُقدّمة إيّاه عليهم .

وثالثاً : لئلا يضع بنو يسرَئيل كل ثقتهم بما تفعل ، ويتّكلوا كلّياً عليها . والمقصد من ذلك هو إيجاد أسباب إضافية لهم ليضعوا ثقتهم كلّها بالرّب وحده دون سواه .

«فقالت له زِرِش زوجته وكل أحبّائه : «فليعملوا خشبةً» ، إلخ»[1] .

ותאמר זרש אשתו וכל־אהביו יעשו־עץ . .

---

(1) مجلّت إستير - 5 : 14 .

تقول زِرِش لهامان : «ليس بمقدورك أبداً الانتصار على مُرْدَخاي بالوسائل التي تمّ تجريبها مُسبقاً ضدّ شعبه . فليس بوسعك أن تقتله بسكّين أو سيف ، لأن يصحاق أُنجي من مثلهما ، وليس بوسعك أن تُغرقه ، لأن مُوشيه وبني يسرَئيل مشوا بأمان عبر البحر . أما النّار فلن تحرقه ، لأنها فشلت في ذلك مع حنَنْياه ورفاقه ، والوحوش كذلك لن تفترسه ، حيث نجا دانيئيل من براثن الأسود ، ولا يمكن لزنزانة أن تحتويه ، لأن يوسيف خطا إلى المجد عبر بوّابة سجن . وحتى لو حرمناه حاسّة البصر لا يمكننا الانتصار عليه ، لأن شِمْشُون أُعمي بصره وبرغم ذلك أهلك آلافاً من الفلسطينيين . ولم يبق أمامنا سوى وسيلة واحدة ، هي أن نشنقه» .

فحسب هذه المشورة عمل هامان المشنقة بارتفاع خمسين ذراعاً . وبعد أن فرغ من نصب آلة الموت المخيفة هذه ، قَصَدَ مُرْدَخاي ليتأمّل في انتصاره الوشيك عليه . فألفى اليهودي في بيت المدراش وحوله تلامذته متحلّقين ، وكانت أعطافهم متّشحة بالمُسوح ، وكانوا آخذين في البكاء للكلام الذي راح معلّمهم يخاطبهم به .

قال هامان : «غداً أُهلك هؤلاء الأولاد أولاً ، ثم أشنق مُرْدَخاي على المشنقة التي عملتُها» . وبقي في المدرسة ورأى أمّهات التلاميذ يحضرن لهم طعامهم ، لكنهم جميعاً أحجموا عن الأكل ، وقالوا : «بحياة معلّمنا مُرْدَخاي ، سوف لن نذوق طعاماً أو شراباً ، بل صائمين نموت» .

«في تلك الليلة طار نوم الملك»[1] בלילה ההוא נדדה שנת המלך.

راح أحَشويروش يتخيّل أن هامان كان عشيقاً لإستير ، لأنه وحده من بين الأمراء بأسرهم دُعي إلى وليمتها . فلمّا غفا حلم بأنه يرى هامان وبيده سيف مُصلت يطلب قتله ، فاستيقظ مرتعباً وعجز عن النّوم من جديد . لذا فقد قام ودعا كاتبه شِمْشي ، الذي كان من أقارب هامان ، وأمره بفتح أخبار الأيام في فارس ومادي ، وبأن يقرأ له منه .

---

(1) مجلّت إستير – 6 : 1 .

وكانت أول صحيفة فتح شِمْشي الكتاب عندها تضمّ بياناً لواقعة ما أخبر به مُرْدَخاي عن خيانة حاجبي الملك بِغْتان وتِرِش ومجرى قصّتهما . فتحاشى الكاتب قراءة هذه القصّة ، وكان على وشك أن يتحوّل إلى موضع آخر من الكتاب ، فلاحظ الملك فعله ، وأمره بأن يقرأ من الصّحيفة التي صادف فتحها أولاً .

«فقال هامان للملك : «للرّجل الذي يسرّ الملك أن يكرمه فليأتوا باللباس الملكي» ، إلخ»[1] .

لمّا سمع الملك هذا الرّأي من هامان استحالت شُكوكه إلى يقين ، وفكّر في نفسه : «إنه يريد أن يرتدي لباسي الملكي ، ويضع تاجي على رأسه ، ثم يعمد إلى إهلاكي ويحكم بدلاً مني» .

ثم قال الملك لهامان : «أحضر من خزائني السّلطانية الثّوب الأرجواني المصنوع في الحبشة ، الثوب المرصّع بالحجارة الكريمة ، وعلى زواياه الأربع سلسلة ذهبية ، وأحضر كذلك الحليّ التي لبستُها في يوم تتويجي ، وقبّعتي المصنوعة في الحبشة ، وردائي الملكي المطرّز بلآلئ أفريقيا . ثم اذهب إلى إصطبلاتي وخذ منها أكرم جواد لدي ، وألبس مُرْدَخاي اليهودي الأثواب ، وأركبه الجواد» .

فأجاب هامان : «ثمّة عديد من اليهود في شُوشَن اسمهم مُرْدَخاي ، فأيّهم ينبغي تكريمه ؟» .

أجاب الملك : «ما قلتَه عمّن يُسرّني أن أُكرمه ، افعله لمُرْدَخاي اليهودي المُقيم في باب الملك ، ذاك الذي تكلّم بخير لصالح الملك وأنقذ حياته» .

فلمّا سمع هامان هذا الكلام جمد الدّم في عروق قلبه ، وبَهَتَ لون وجهه وغارت عيناه ، وعجز لسانه عن النّطق ، ثم بمشقّة قال : «أيها الملك ، كيف . . كيف بوسعي أعرف أي مُرْدَخاي تقصد ؟» .

أجاب الملك : «قد قلتُ لك ، المُقيم في بابي» .

---

(1) مجلّت إستير - 6 : 7-8 .

قال هامان متعجّباً : «لكنه يكرهني ، يكرهني ويكره أسلافي ، أعفني من تكريمه وأنا أدفع لخزانتك عشرة آلاف طالِن فضّي» .

أجاب الملك : «حتى ولو أعطيتُ هذه العشرة آلاف طالن لمُرْدَخاي ، وأعطيتُه أيضاً بيتك ليحكم عليه ، فإن التكريم الذي تكلّمتَ عنه[1] ينبغي لك أن تؤدّيه له» .

قال هامان متوسّلاً : «أبنائي العشرة يجرون قدّام عربتك ، ويكونون لك عبيداً ، بمجرّد أن تُلغي هذا الأمر» .

فأجاب الملك : «حتى وإن أضحيتَ أنت وزوجتك وأبناؤك العشرة عبيداً لمُرْدَخاي ، فلا بدّ أن ينال هذا التكريم أيضاً» .

لكن هامان بقي مستمراً في توسّله : «ولكن مُرْدَخاي ليس سوى رجل بسيط من رعايا الملك ، فلتعيّنه حاكماً لمدينة أو كُورة أو محلّة ، ليكن هذا مبلغ تكريمه» .

فأجاب الملك مجدّداً : «حتى وإن عيّنتُه حاكماً على كُوَر مملكتي كلّها ، وإن أوكلتُ إليه حكم كل مَن يرتهن بطاعتي في البحر والبرّ ، فلا بدّ أن يؤدّى إليه أيضاً هذا التكريم الذي قلتُ به . فإن مَن تكلّم في مصلحة ملكه ، وحافظ على حياة الملك ، لا ريب أنه مُستحقٌّ لكلّ ما يتعلّق بمَن يُسرّ الملك أن يُكرمه» .

فتابع هامان : «ولكن ماذا عن الرّسائل التي تم توجيهها إلى كُوَر مملكتك كلّها ، والآمرة بإهلاكه هو وشعبه ؟» .

فابتدر الملك قائلاً : «رُويدك مَهلاً ، حتى وإن تمّ تنفيذها فلا بدّ من تكريم مُرْدَخاي على النّحو الذي وصفتَ . حَسْبُك يا هامان ولتكفّ عن النّقاش ، كما تكلّمتَ فافعل بالعَجَل ، ولا يسقط شيء من جميع ما قلتَه» .

---

(1) حول كلام هامان هذا راجع مجلّة إستير - 6 : 6-9 . وملخص ذلك أن الملك لمّا قرّر أن يُكرم مُرْدَخاي عدوّ هامان ، سأل هامان من غير أن يُطلعه على ذلك : «ماذا يُعمل لرجل يُسرّ الملك بأن يُكرمه ؟» فظنّ هامان أنه هو المقصود بالتكريم ، فراح يستفيض في كلامه بما يوافق ما في نفسه ، وإذا بما يتمنّاه يكون من نصيب عدوّه .

فلمّا ألفى هامان أن كل محاولاته لم تُجد نفعاً ، أطاع أوامر الملك بقلب مرير . فقصد مُرْدَخاي بالأردية والجواد المُزركش ، وقال : «قُم يا مُرْدَخاي الصّالح ، يا سليل أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، قُم من مُسوحك ورَمادك ! فها هي ذي فاقت قيمة وزناتي الفضّية كلّها ، وها هو ذا إلهك بسط رحمته عليك . قُم يا مُرْدَخاي وألقِ عنك مُسوحك ورَمادك ، وارتدِ هذه الحلل الملكية»[1] .

فعندها أجاب مُرْدَخاي : «يا لهامان اللئيم ! قد آن لك الأوان لتأكل العلقم وتشرب المرّ ، يا ابن عماليق» .

ردّ هامان : «تعال ، فارتدِ الثياب وامتطِ الجواد ، فأوامر الملك ينبغي أن تُطاع» .

ودَهَن هامان مُرْدَخاي بالأطياب النّفيسة ، وزيّاه بالأردية الملكيّة ، وأركبه متن جواد الملك ، بحسب كلامه هو وأوامر أحَشويروش . ثم تمّ تشكيل حاشية موكب ، فخُصّص سبعة عشر ألف جندي لمرافقة مُرْدَخاي وقُسموا إلى كوكبتين : إحداهما تسبقه والأخرى تتبعه ، أما هو فيسير في الوسط على جواد يمسك بعنانه هامان . وفيما كانوا يعبرون بطرقات شُوشَن ، راح الجنود ينادون : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يُسرّ الملك بأن يُكرمه» .

فلمّا رأى اليهود هذا الموكب العظيم ، ومُرْدَخاي يُكرم في وسطه ، تبعوه وراحوا يردّون على هتاف الجنود قائلين بأعلى صوت : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يعبد الملك الذي خلق السّموات والأرض ، ومَن رغب الله بتكريمه» . ولمّا رأت إستير قريبها متزيّياً على هذا النّحو ، شكرت الرّب وحمدته .

وقالت : «مع صاحب المزامير أقول : «المُقيم المسكين من التّراب ، الرّافع البائس من المزبلة ليُجلسه مع أشرافٍ ، مع أشراف شعبه» » (113 : 7-8) .

---

(1) مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عدوّ ، ومجرّد عملية فاحصة سريعة بعلم النّقد النصّي text-critique تدلّ على مدى عمق الأسلوب التّوفيقي المصطنع في هذه الحواشي الهَجَدائية . وهذا الأمر إن تمّ تعميمه على باقي روايات الأسفار «المقدّسة» لخرجنا بما هو أكثر وأهم ، ولعدنا إلى نظرية : «صناعة المقدس» .

وكذلك حَمَدَ مُرْدَخاي الربّ فقال : «حوّلتَ نَوحي إلى رَقص ، حَلَتَ مسحي ومَنطقتني بالسّرور . إيّاك أمجّد يا ربّ ، إذ رفعتني ولم تسمح لأعدائي أن يظفروا بي» (المزامير 30 : 12) .

وقام هامان بخدمة مُرْدَخاي بأربعة صنوف من الخدمة : فأولاً ، كان له حلاّقاً ، فقد حلق له وضمّخه بالطيّب . وثانياً ، كان له خادماً شخصياً ، فقد تولّى خدمته في الحمّام . وثالثاً ، كان له سائساً ، فقد أخذ بعنان الجواد الذي يركبه مُرْدَخاي . ورابعاً ، كان له مُنادياً ، فقد راح يهتف أمامه : «هكذا يُصنع للرّجل الذي يُسرّ الملك بأن يُكرمه» .

«وقَصّ هامان على زِرِش زوجته ، إلخ»[1] .

لم يتلقّ هامان سوى تعزية يسيرة من خواصّه ، وقالت زوجته : «إنك تسقط سقوطاً ، لأن مَن حاولوا إحراق حَنَنْياه وميشائيل وعَزَرياه في الأتون المُستعر هلكوا أنفسهم في اللّهب ، فحذارِ إنك لساقطٌ قدّام هذا اليهودي سقوطاً» .

ولمّا رأى عبيد الملك أن هامان راح يفقد مكانته ، بدأوا هم الآخرون ينقلبون عليه . وأخطر حَربوناه חרבונה الملك بأن هامان يبيّت مؤامرات على حياته هو شخصياً . فقال هذا المتملّق : «إن كنت لا تصدّقني فأرسل إلى بيته ، وفيه ستعثر على مشنقة قائمة ارتفاعها خمسون ذراعاً ، نصبها لمُرْدَخاي ، لأنه تكلّم بالخير نحوك وأنقذ حياتك» .

فقال الملك لمُرْدَخاي : «اذهب فأحضر عدوّك هامان وعلّقه على المشنقة ، وافعل به ما يحلو لك» . فترامى هامان على مُرْدَخاي ورَجاه أن يتمّ الإجهاز على حياته بالسّيف ، غير أن مُرْدَخاي لم يُصغ إليه سمعاً . وقال هذا الأخير : «مَن حَفَر لامرئ حُفرةً حُقّ عليه أن يقع فيها . ومَن دحرج حجراً على امرئ ، فعليه ألا يتشكّى إن انقلب الحجر عليه فهَصَره»[2] .

---

(1) مجلّت إستير - 6 : 7-8 .

(2) من الضّرورة بمكان متابعة هذا النّص بالقصة الأصلية في مجلّت إستير من أسفار الكتوبيم اليهودية ، بغية ملاحظة آلية تطوّر نسيج القصّة واستجازة قولبتها توفيقياً .

وتمّ تحرير رسالة تحمل ختم الملك ، بُغية إبطال الأمر الصّادر مُسبقاً ضدّ اليهود[1] :

«إلى كل المرازبة والولاة والأهلين في جميع بلدان مملكتنا ، سلام . إن حكومتنا لا يمكن أن تزدهر ما لم يتم توحيد شعوبها ، ولذا فنريد أن نراكم جميعاً تعيشون بوئام أخوي . ليتعامل كل شعوب بلدان مملكتنا سواسيةً كأمّة واحدة ، وليضمروا المودّة والإحسان للأمم الأخرى والأديان الأخرى أجمع ، وليكرموا جميع ممالك الأرض المحبّة للسّلام . وإن مَن يعمد إلى تضليل الملك بإخباريات شرّيرة تتعلّق بأي شعبٍ من شعوبنا ، ويعمل على استصدار الإذن بإبادة أشخاص مسالمين ومطيعين للقانون ، فهو مستحقٌّ للموت ، وسيلقاه حتماً . فليهلك مثل هؤلاء ، وليعش الباقون في وئام تحت ميثاق سلم لا تنفصم عُراه ، مضاعَف المتانة لا يدبّ إليه وَهن ولا كلال . ولا يجوزنّ السّماح بإهانة أي شعب .

«أما إستير فهي إنسانة صالحة وعالية الشأن ، وهي ملكتنا ، ومُرْدَخاي هو أحكم أهل عصره ، بريء من الذّنوب هو وشعبه على حدٍّ سواء . ومن خلال مشورة هامان ابن هَمَداتا ، كان صدر مرسومنا السّابق ، وهو الآن لاغٍ وباطل . وعلاوة على ذلك ، فنحن نرسم بأن لليهود الحقّ في أن يقوموا ويحموا أنفسهم ، ويثأروا لأنفسهم ممّن يرفع في وجههم يداً للشرّ .

«إن خالق السّموات والأرض قد أنزل هذه الكلمات على قلوبنا وأفواهنا ، وعلى ذلك نُصدرها ونرسُم بها بحسب دساتير فارس ومادي» .

* * *

(1) قابل ذلك على الأصحاح الثامن من مجلّت إستير .

الفصل الخامس
الملك شلومو الحكيم

«أرأيتَ الرجل الذي يُجدُّ في عمله ؟ إنه أمام الملوك يقف ، ولا يقف أمام الوضيعين» (سفر الأمثال – 22 : 29) .

חזית איש מהיר במלאכתו לפני־מלכים יתיצב
בל־יתיצב לפני חשכים:

في هذه الآية يشير شلومو שלמה إلى نفسه . فقد بنى هيكل الرّب المقدّس في سبعة أعوام ، بينما استغرق أربعة عشر عاماً في تشييد قصره . لكن هذا ليس بسبب أن قصره كان أكثر نيافة أو أرفع شأناً في ريازته من الهيكل ، بل لأنه كان مُجداً أكثر في عمله على إقامة بيت الله ، بينما ترك بناء بيته لما يُتاح له من الوقت ومن الظروف .

ثمّة أربع حالات مُقارنة ما بين الآباء والأبناء يمكن تدوينها :

أولاً : رجل صالح يخلّف ابناً صالحاً .
ثانياً : رجل خبيث يخلّف ابناً خبيثاً .
ثالثاً : رجل خبيث يخلّف ابناً صالحاً .
رابعاً : رجل صالح يخلّف ابناً خبيثاً .

وحول كلٍّ من هذه النماذج بوسعنا أن نجد دليلاً من الكتاب المقدّس ، وعلى كل واحد منها يمكن أن نضع مَثَلاً وقصة مأثورة .

فحول الأب الصّالح والابن الصّالح ، نجد الآية التالية (سفر المزامير 45 : 17) : «عِوضاً عن آبائك يكون بنوك» . ويمكن لنا أن نضيف مثال شجرة التّين الطيّبة التي طرحت ثماراً لذيذة .

وحول الأب الخبيث والابن الخبيث لدينا في سفر العدد 32 : 14 : «فهو ذا أنتم قد قُمتُم عوضاً عن آبائكم تربية أُناسٍ خُطاة» .

وثمّة مَثَل قديم يقول : «الخبيث لا يخلّف إلا خبيثاً» ، وكذلك تنطبق عليه القصّة المأثورة عن الحيّة التي تلد أُفعواناً .

وفي النّموذج الثالث ، يخلّف الأب الخبيث ابناً صالحاً ، كما هو مكتوب في الكتاب المقدّس : «عوضاً عن الشّوك ينبت سَرو»[1] . وإلى ذلك يمكن أن نضيف القصّة المأثورة عن الوردة التي تتفتّح براعمها على شُجيرة التّوت البرّي .

وأخيراً ، الأب الصّالح ذو الابن الخبيث ، كما هو مكتوب : «فعِوَض الحنطة لينبت شوك» (سفر أيوب 31 : 40) . ولدينا كذلك القصة المأثورة عن شجرة الدرّاق البهيّة التي أنبتت ثماراً مُرّة .

أما شْلومو[2] فكان ملكاً ابن ملك ، ابن حكيم لأب حكيم ، ولد صالح لأب صالح . وكل أحداث حياة الملك داوِد وجميع مزاياه ، لها ما يماثلها في حياة شْلومو .

فلقد حكم داوِد דוד أربعين عاماً ، كما هو مكتوب : «والزّمان الذي مَلَك فيه داوِد على يسرئيل أربعون سنة»[3] . أما عن شْلومو فمكتوب : «ومَلَكَ شْلومو في يروشَلايْم على يسرَئيل كلّها أربعين سنة» . وكان داوِد يعبّر عن نفسه عن طريق «الكلام» ، كما هو مكتوب : «وهذا كان آخر كلام داوِد» . فكذلك كان شْلومو يعبّر عن نفسه بواسطة «الكلام» : «كلام قُهِلت קהלת (الجامعة ، أي شْلومو) ابن داوِد» (سفر الجامعة – 1 : 1) .

قال داوِد : «كل شيء باطل» ، كما هو مكتوب : «إنّما باطلاً يضجّون» (سفر المزامير – 39 : 7) . فاستخدم شْلومو في كلامه العبارة ذاتها «الباطل» : «باطل الأباطيل ، قال قُهِلت (الجامعة)» (سفر الجامعة – 1 : 2) .

---

(1) سفر يشَعْياه – 55 : 13 .

(2) نذكّر مجدّداً أننا آثرنا رسم أسماء شخصيات التّلمود بصورتها العبرية كما وردت فيه .

(3) سفر أخبار الأيام الأول – 29 : 27 .

وكتب داود أسفاراً ، هي تحديداً أسفار المزامير الخمسة ، وكذلك كتب شلومو ثلاثة أسفار : سفر الأمثال ، وسفر الجامعة[1] ، ونشيد شلومو .

وألّف داود أناشيد : «وكلّم داود الرّب بكلام هذا النّشيد» (سفر صموئيل الثاني – 22 : 1) . فكذلك ألّف شلومو نشيداً كما يرد في مطلعه : «نشيد الأناشيد الذي لشلومو»[2] .

وكان هو الملك الحكيم الذي وردت الإشارة إليه في سفر الأمثال 16 : 23 : «قلبُ الحكيم يُرشد فمه ويزيد شفتيه علماً» . بمعنى أن قلب الحكيم مليء بالمعرفة والفهم ، لكن ذلك كلّه يخرج إلى النّاس عن طريق الكلام الخارج من فمه . ومن خلال نُطق شفتيه لأفكار عقله (أو قلبه) فهو يزيد في معرفة النّاس . فإن كان لامرئ ما دُرّر وجواهر نفيسة ، وخبّأها عن الناظرين ، لما التفت أحدٌ إلى قيمتها ، لكنه إن أظهرها للنّاس فإن شأنها يشتهر ، وتزداد متعة تملّكه لها .

فلدى تطبيق هذا التشبيه على وضع شلومو ، نرى أن الحكمة عندما كانت حبيسة في صدره لم يدرك قيمتها أحد ، لكنه عندما قدّم للملأ كتبه الثلاثة[3] ، اطّلع النّاس على قدراته العظيمة . «وكلام شفتيه يزيد في معرفة شعبه» ، وكان صيته رفيعاً إلى حدّ أن أيّ مَن واجه شكاً في تفسير فقرة توراتيّة كان يقصد الملك من أجل التفسير الصّحيح .

ولقد رفع الملك شلومو مستوى التربية ليس على مستوى المعارف المقدّسة فحسب ، فلقد تفوّق ودرّس في علوم الفلسفة الطبيعية ، والجسم البشري ، وعلم النبات ، والزّراعة ، والرّياضيات بكافّة فروعها ، وعلم الفلك ، والكيمياء ،

---

(1) اسم هذا السفر في الكتاب اليهودي المقدّس (تنخ) : سفر قُهِلت ספר קהלת ، تُرجم في النسخ المعرّبة إلى عبارة : سفر الجامعة ، وراح التّراجمة يتعجّبون من هويّة كاتب السّفر الذي يسمّي نفسه «قُهِلت بن داود» ، ويعربون عن غموض التسمية وصاحبها . قلنا : بكل بساطة ، ليس «قُهِلت» هذا سوى لقب لشلومو بن داود نفسه ، ومعناه في العبرية : الرّابطة والجامعة ، كناية تعني هنا : لسان حال الجماعة ، النّاطق باسمها .

(2) هو السّفر الرابع من أسفار الكتوبيم .

(3) هذا الأمر جديد على دارسي الثقافة الإسلامية ، فمَن كان يدري أن للملك النبي سُليمان الحكيم ابن داود عليه السلام ثلاثة كتب : الأمثال – قُهِلت (الجامعة) – نشيد الأناشيد ؟

وبالإجمال في جميع الدّراسات النّافعة . ودرّس كذلك فنون البلاغة وقواعد الشّعر . كما كان مُفرداً في فنّ النّظم اللفظي من جِناس وحساب جُمَّل .

«وعدا عن كون قُهِلِت حكيماً ، كان دائماً يعلّم الشعب»[1]، ויתר שהיה קהלת חכם עוד למד־דעת את־העם .

فإذا كان ما يقوله الآخرون يجتذب اهتمام النّاس ، فكم كانوا بالأحرى يُنصتون لشْلومو ، وكم كانوا يستوعبون كلامه بسهولة أكبر !

يمكن لنا أن نصوّر أسلوبه في التّدريس بهذه التشبيه التالي : كان ثمّة سلّة بغير عروتين ، مليئة بأحسن الثّمار ، غير أن صاحبها ما كان قادراً على حملها إلى بيته من جرّاء تعذّر حملها ، إلى أن تقدّم رجل حكيم عندما رأى المعضلة فجعل للسلّة مقبضين ، فصار يمكن حملها بسهولة بالغة . فهكذا كان شْلومو يميط المصاعب عن طريق التلاميذ .

وكذلك قام الرّابي هُونا بتصوير الأمر بشكل آخر : «كان هناك فيما مضى بئر ماء فيه أعذب الماء وأنقاه ، غير أنه كان عميقاً للغاية بحيث أن النّاس كانوا غير قادرين على بلوغ الماء ، إلى أن تقدّم رجل ذو حكمة فأخذ دلواً وربط به حبلاً تلو الآخر إلى أن صار الجميع بما يكفي لبلوغ الماء . فهكذا كان شأن تدريس شْلومو أيضاً . فإن التّوراه بئر للحقيقة ، غير أن تعاليمه أعمق من فهم البعض . بيد أن شْلومو راح يطرح القصص والأمثال الموافقة لاستيعاب الجميع ، ومن خلالها أمكن الحصول على معرفة يسيرة لقوانين الشريعة» .

وروى الرّابي شِمعون بن حَلَفتا القصّة المأثورة التالية : «كان لبعض الملوك وزير ، وكان الملك متعلّقاً به كثيراً ويطيب له كثيراً أن يعامله بالتّكريم . ويوماً ما قال لوزيره الأثير : «دُونَك ، فلتتمنَّ أمنية ، وكل ما هو بوسعي فأنا لك باذلُه» . ففكّر هذا الوزير : «إن طلبتُ من الملك ذهباً أو فضّةً أو جواهر ، أعطانيها كلّها ، وحتى إن رغبتُ بتكريم أرفع أو منصب أكثر سمواً نلتُه دونما تثريب ، لكنني أطلب منه يد ابنته ، فإن مَنَحَني هذا السُّؤل حُزتُ الباقي جميعه» » .

---

(1) سفر الجامعة – 12 : 9 .

فلمّا تراءى الرّب لشلومو في جِبعُون גבעון ، وقال له في حُلمه : «اسأل ماذا أعطيك ؟»[1] ، فكّر شلومو : «إن طلبتُ ذهباً أو فضّة أو جواهر أعطانيها الرّب ، لذا سأطلبُ الحكمة ، فإن أوتيتُها حُزتُ كلّ شيء دونَها» . ولذلك أجاب : «أعطِ عبدَك قلباً فهيماً» .

فعندها قال الرّب : «من أجل أنكَ سألتَ لنفسك حكمةً ، ولم تسأل غنىً أو سُلطاناً على مُبغضيك في حياتك ، يكون لك الحكمة والمعرفة ، ومن خلالهما تحوز الغنى والسُّلطان»[2] .

«فاستيقظ شلومو ، وإذا هو حُلمٌ»[3] ، ויקץ שלמה והנה חלום . فراح يتلفّت في الحقول ، فسمع أصوات البهائم : نهيق الحمار ، وزئير الأسد ، ونُباح الكلب ، وصياح الدّيك ، فإذا به يفهم كل ما يقول واحدها للآخر .

ولو أن ثوراً ذُبح وفُصّل ، كان له إقامته من جديد ، بشرط ألا تكون الأوتار قد قُطّعت ، لكن إن تمّ فصلها تلزم الأربطة لإيثاق الجسد ببعضه . وطالما حافظ شلومو على نقائه من الذّنوب كانت دعواتُه تُستجاب بما يحبّ ويرضى ، أما عندما كان يُجانب سبيل الحقّ ويعمل الشّرّ ، فإن الرّب كان يقول له : «لا أنزع عنك المُلك في أيامك من أجل أبيك داود عبدي» .

قال شلومو : «باطل الأباطيل ، الكلّ باطلٌ كالظلّ» . ظلٌّ من أي نوع ؟ إن ظل البُرج أو الشجرة يمكث ظلاً لفترة من الوقت ، ثم يتلاشى ، غير أن ظلّ الطير يطير فلا يبقى طيرٌ ولا ظلّ[4] . ولقد قال داود : «أيامُنا كظلٍّ عابر» ، وقال الرّابي هُونا : «أيّامنا تجوز منّا بسرعة ، كظلّ طير يطير» .

---

(1) سفر أخبار الأيام الثاني – 1 : 7 .

(2) سفر أخبار الأيام الثاني 1 : 11–12 . «رأس الحكمة مخافة الرّب» (مزامير 111 : 10) . وفي القرآن الكريم : ﴿ومَن يؤتَ الحِكْمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾ (البقرة – 269) .

(3) سفر الملوك الأول – 3 : 15 .

(4) مَن يقرأ سفر الجامعة وما به من حكم ورؤى فلسفية ، يجد فيه انعكاساً جلياً لفكر فلسفي غنوصي . هذا الفكر نجد له مُضارعاً عرفانياً فيما بعد في تراثنا الصّوفي الإسلامي ، ومن الممكن عقد مقارنة في التشابه بين الأسلوب البلاغي لهذا السّفر القديم ، ورائعة الإمام المتصوّف محمّد بن عبد الجبّار النّفّري : «المواقف والمخاطبات» .

وبعبارة «باطل» يعبّر شلومو عن المراحل السّبعة من حياة الإنسان . فالطّفل يشبّهه بالملك ، الذي يستقلّ مركبته الصغيرة ، ويتلقّى من الجميع القُبل والإعجاب والمديح . أما الطفل في سنته الثالثة أو الرّابعة فيشبّهه بالخنزير ، المُغرم بالأقذار والذي يمرّغ نفسه في طعامه . والولد ابن العاشرة متولّع بالأردية ، أما الشاب فيتأنّق في شكله ويبحث عن زوجة . والرجل المتزوّج كالكلب الباحث عن قُوته وقُوت عياله ، أما العجوز فيشبّهه بالقرد .

«وأعطى الله شلومو حكمةً»[1]، ויתן אלהים חכמה לשלמה .

عندما كان شلومو عازماً على بناء الهيكل ، طلب إلى ملك مصر مَدّه بالرّجال لمؤازرته في العمل . فبعد أن استشار قَرْعوه عرّافيه ، انتقى الرّجال الذين يقع مماتهم في غضون السنة ذاتها . فلمّا بلغوا يروشَلايْم ردّهم الملك الحكيم على الفور ، وأرسل مع كلّ منهم كَفَناً ، وأوصاهم أن يقولوا لسيّدهم : «إن عجزت مصر عن توفير الأكفان لموتاها ، وترسلهم لهذا الغرض إليّ ، فها هم أولاء ، الرّجال وأكفانهم معاً ، خُذهم وادفن موتاك» .

كان شلومو أكثر حكمة من كل النّاس ، وأكثر حتى من آدام ذاته الذي سمّى حيوانات العالم بأسره ، وحتى على نفسه أطلق اسماً قائلاً : «من تُراب الأرض اتُّخذتُ ، فإذاً يكون اسمي آدام אדם» . قال الرّابي تَنحُوم : «أين هي حكمتُك وفهمُك ، أيها الملك شلومو ؟ إن كلامك لا يناقض نفسه فحسب ، بل ويناقض أيضاً كلام داود أبيك» . إذ قال : «ليس الأمواتُ يُسبّحون الرّب» (المزامير – 115 : 17) ، أما أنت فقلت : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان ، أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد» (سفر الجامعة – 4 : 2) . وأنت أيضاً قلتَ : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» (سفر الجامعة – 9 : 4) .

غير أن هذه التناقضات البادية من الممكن تفسيرها بيُسر ، قال داود : «ليس الأمواتُ يُسبّحون الرّب» ، بمعنى أننا علينا أن نتدارس شريعة الله إبّان حياتنا ، لأن ذلك مُحال بعد انتهائها . وقال شلومو : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ

(1) سفر الملوك الأول – 5 : 9 في التّوراه المسوراتية ، وفي الترجمة السبعينية : 4 : 29 .

زمان» فعندما أذنب بنو يسرَئيل في البريّة ، دعا مُوشيْه من أجلهم ، فلم يُستجب دعاؤه ، لكنه لمّا قال : «اذكر أبرَهام ويصحاق ويسرَئيل عبيدك» ، إذا به يلاقي قبولاً فورياً . ولذلك ألم يكن كلام شْلومو طيباً عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان» ؟ فهاكَ مثالاً آخر : قد يسنّ ملكٌ شرائع ، لكن عديداً من أتباعه قد يهملونها . وأحياناً فإن هذه الشرائع حتى وإن تمّ تطبيقها بصدق خلال حياة مَن سنّها ، لربّما تضحي لاغية أو تصير قديمة بعد موته . أمّا مُوشيْه فقد سنّ عديداً من الشرائع الصّارمة ، التي طُبّقتْ عبر الأجيال كلّها . لذلك ، أصاب شْلومو عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» .

ولقد شرح الرّابي يهودا ، باسم الرّاب ، هذه الآية بشكل أتمّ فقال : «ما هو معنى الآية التالية : «اصنع معي آيةً للخير فيرى ذلك مُبغضيّ فيَخْزَوا» (المزامير - 86 : 17) . وقال داود لله إثر خطيئته مع بَتْشَبَع[1] : «يا مالك الكون ، اغفر لي خطيئتي» . فأجاب الرّب : «قد غفرتُ لك» . ثم قال داود : «أعطني آيةً في حياتي» ، غير أن الله قال : «لا بحياتك ، بل في حياة شْلومو ابنك أعطيها» . لذلك ، عندما كرّس شْلومو الهيكل ، رغم أنه دعا بتقوى تامّة ، لم يُستجب له حتى قال : «أيها الرّب الإله ، لا تردّ وجه مسيحك ! اذكر مَرَاحم داود عبدك» (سفر أخبار الأيام الثاني - 6 : 42) . وعندها ، استجيب له فوراً ، لأنه في الآية التالية نقرأ : «ولمّا انتهى شْلومو من الصّلاة نزلت نارٌ من من السّماء وأكلت المحرقة والذّبائح ، وملأ مجدُ الرّبّ البيت» . وبعد ذلك أُخزي مُبغضو داود جميعهم ، بأن يسرَئيل كلّها علمت بأن الله قد غفر لداود ذنبه . أوَلَم يتكلّم شْلومو إذاً بخير عندما قال : «فغبطتُ أنا الأموات» ؟ ولأجل هذا السبب ، نقرأ في تتمّة الفصل : «وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر السابع ، صَرَف الشعب إلى خيامهم فرحين وطيّبي القلوب ، لأجل الخير الذي عمله الرّب لداود ولشْلومو وليسرَئيل شعبه»[2] .

---

(1) هي بَتْشَبَع بنت إلِيعام زوجة أوريا الحثّي ، التي تزوّجها الملك داود بعد أن دفع زوجها إلى الموت في الحرب ، فأنجبت له ابنه شْلومو . انظر سفر صموئيل الثاني - 11 : 3 .

(2) سفر أخبار الأيام الثاني - 7 : 10 .

قال شلومو : «فإن الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» .

في شرح هذه الآية ، قال الرّابي يهوداه باسم الرّاب : «ما هو معنى الآية : «عرّفني يا ربّ نهايتي ومقدار أيامي كم هي ، فأعرف متى أنا زائل» » (سفر المزامير 39 : 5 –) .

«قال داود لله : «عرّفني يا ربّ نهايتي» ، فأجاب الله : «قد حكمتُ لكلّ امرئ بأن تكون نهايته طيّ الكتمان في مُستقبل الأيام» . فقال داود : «فما مقدار أيامي ؟» . أجاب الله مجدّداً : «ليس لامرئ أن يعلم مقدار أيامه» . تابع داود : «أحب أن أعرف متى أنا زائل» ، فأجاب الله : «تموت في يوم شَبّات» .

«فتوسّل داود قائلاً : «دعني أموت في اليوم التالي» ، غير أن الله أجاب : «لا ، فعندها تؤول المملكة لشلومو ، ولا ينبغي لحُكم امرئ أن يأخذ من حُكم امرئ آخر ولو بمقدار شعرة» . قال داود : «فدعني أموتُ إذاً في اليوم السّابق ، لأن يوماً واحداً في دار الحقّ لديك خيرٌ من ألف يوم في أي مكان» ، فقال الله : «يومٌ واحد تُمضيه في دراسة شريعتي خيرٌ وأكثر قبولاً من ألف قُربان محرقة يُقدّمها شلومو ابنك» .

«كان من عادة داود أن يمضي كل شَبّات في دراسة التّوراه (الشّريعة) وتعاليمها ، فكان مُنشغلاً على هذا النّحو في يوم شَبّات الذي كان مُقدّراً له أن يكون الأخير . وكان خلف قصر الملك بُستان ، فسمع داود جلبة فيه ، فمشى ليستبين سببها . وما كاد يلج أرض البستان حتى وقع إلى الأرض ميتاً .

«كان سبب الجلبة في البُستان هو نُباح كلاب الملك ، التي لم تنل في ذلك اليوم طعامها . فأرسل شلومو رسالة إلى مَجمع الرّبانيين يقول فيها : «أبي يتمدّد ميتاً في بُستانه ، فهل يجوز رفع جُثمانه في يوم شَبّات ؟ وكلاب أبي تتوسّل طلباً لطعامها ، فهل من اللائق تقطيع اللّحم لها اليوم ؟» فورد الرّدّ التالي من المجمع : «جُثمان أبيك لا يجوز أن يُرفع اليوم ، لكن فلتقدّم للكلاب لحمها» . فلذلك قال شلومو : «الكلب الحيّ خيرٌ من الأسد الميت» ، فشبّه على وجه الصّواب ابن يشّاي (داود) بملك الغاب» .

كان شلومو المُنتَجَب من قِبَل الرّب ، الذي أطلق عليه ، على لسان النّبي ناتان : «يديدياه» ידידיה (حبيب الله) . وسُمّي «شلومو» שלמה (سَلام) لأن في أيامه عَمّ السّلام ، كما هو مكتوب : «وسَكَن يهوداه ويسرَئيل آمنين» (سفر الملوك الأول – 5 : 5)[1] . كما سُمّي أيضاً «إيتيئيل» אתיאל (الله معي) لأن الله كان في عونه .

ولمّا جلس شلومو على عرش أبيه داود ، خافته أمم الأرض كلّها ، وأصغت أمم الأرض كلّها بلهفة إلى كلامه الحكيم .

بعد ذلك ، عُمل لشلومو عَرش خاص على يد حيرام ، وهو ابن أرملة من صيدا . كان هذا العرش مكسواً بذهب أوفير ، ومطعّماً بجميع أنواع الأحجار الكريمة والنّفيسة . وكان يُوصل إلى كرسي العَرش بست درجات عريضة . وكان يحرس الجانب الأيمن من الدّرجة الأولى ثور مصنوع من الذّهب الخالص ، والجانب الأيسر أسد من المعدن الثمين ذاته . وعلى يمين الدّرجة الثانية يقوم دبّ من الذّهب أيضاً ، وعلى اليسار حَمَل ، بما يرمز إلى عيش الأعداء معاً بسلام . وعلى يمين الدّرجة الثالثة وُضع جَمَل ذهبي ، وعلى اليسار نسر . وعلى يمين الدّرجة الرابعة كان هناك أيضاً نسر ناشر جناحيه ، وعلى اليسار طائر جارح وكل ذلك من المعدن الثمين ذاته . وعلى الدّرجة الخامسة إلى جهة اليمين قطّ ذهبي يجثم في مكانه ، وإلى جهة اليسار دجاجة . وعلى يمين الدّرجة السّادسة صورة لصقر ، وإلى جهة اليسار حمامة ، وعلى أعلى الدّرجة حمامة تقبض على صقر بمخالبها . ولقد تمّ تشكيل هذه الحيوانات لترمز إلى العهد الذي تتّحد فيه الكائنات المتغايرة الطبائع في سلام ووئام ، كما هو مكتوب في سفر يشَعْياه (11 : 6) : «فيسكن الذّئب مع الخروف» .

وبأعلى العَرش عُلّق شمعدان من الذّهب ذو سبع شُعَب ، مزيّن بالورود والحُلي والطاسات والملاقط ، وعلى الشُّعَب السبع نُقشت أسماء الأسلاف الكهنة السبعة : آدام ، نُوَح ، شيم ، أبرَهام ، يصحاق ، يعقوب ، أيوب .

---

(1) هذا في النسخة المَسوراتيّة العبرانية ، أما في الترجمة السبعينية فموضعه في 4 : 25 .

وعلى النَّسق الثاني من شُعَب الشّمعدان نُقشت أسماء السّبعة الصّالحين في الدّنيا : ليوي ، قِهات ، عَمْرام ، مُوشيْه ، أهَرُون ، إلداد ، ميداد[1] . وفوق ذلك كله تدلّى إناء ذهبي مملوء بزيت الزّيتون الصّافي ، نُقشت عليه أسماء : عيلي עלי كاهن الرّب الأكبر ، وابنيه حافني חפני وفنحاس פנחס[2] ، وعلى الجانب الآخر أسما ابني أهَرُون : ناداب נדב وأبيهو אביהוא[3] .

وإلى الجهة اليمنى من العَرش وُضع كرسيّان ، أحدهما لكاهن الرّب الأكبر والآخر لنائب الكاهن الأكبر . وإلى الجهة اليسرى ، من الأعلى إلى حدّ الأرض واحد وسبعون كرسيّاً جُعلت مقاعد لأعضاء السّنهدرين .

ولقد جُعل العرش على دواليب ، بحيث يمكن نقله بيُسر حيثما شاء له الملك أن يكون .

وأعطى الرّب شلومو القُدرة على فهم طبيعة وخصائص الأعشاب البريّة وأشجار الأحراج ، كما هو مكتوب : «وتكلّم عن الأشجار ، من الأرز الذي في لُبنان إلى الزُّوفا النّابت في الحائط . وتكلّم عن البهائم وعن الطير ، وعن الدّبيب وعن السّمك» (سفر الملوك الأول – 5 : 13)[4] .

وقيل إن شلومو حكم العالم بأسره ، ويُستدلّ على ذلك بهذه الآية : «وكان شلومو مُتسلّطاً على جميع الممالك . . . وكانوا يقدّمون الهدايا ويخدمون شلومو كل أيام حياته» (سفر الملوك الأول – 5 : 1)[5] .

وراحت جميع الممالك تهنّئ شلومو كخير خَلَف لداود أبيه ، الذي طبّقت شهرته الأمم ، كلّها ما خلا واحدة هي مملكة شِبا ، التي عاصمتها قِطوره .

---

(1) هذه أسماء سلسلة نسب مُوشيْه وأخيه أهَرُون ابني عَمرام بن قِهات بن ليوي بن يعقوب بن يصحاق بن أبرَهام . أما إلداد وميداد فهما رجلان كانا يتنبّآن أثناء تيه سيناء . انظر حول ذلك سفر العدد – 11 : 26 .

(2) انظر سفر صموئيل الأول – 1 : 3 .

(3) انظر سفر الخروج – 6 : 23 .

(4) هذا في النسخة المسوراتية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 33 .

(5) هذا في النسخة المسوراتية من التّوراه ، وهو في السبعينية : 4 : 21 .

فأرسل شلومو إلى هذه المملكة رسالة يقول فيها :

«مني أنا ، شلومو الملك ، سلامٌ لك ولحكومتك . ليكن معلوماً لديكِ أن الله القدير قد مكّنني من حُكم العالم بأسره ، بما فيه من ممالك بالشّمال والجنوب والشرق والغرب . فها هم قد جاؤوني مهنّئين ، كلّهم ما عداكِ أنتِ .

«فأرجو منكِ أن تأتي أنتِ أيضاً ، ولتخضعي لسُلطاني فينالك مني تكريمٌ عظيم . لكن إن تمنّعتِ تراني أفرض عليك الإقرار بسُلطاني بالقوّة .

«إليكِ يا ملكة شِبا מלכת־שבא تُوّجه هذه الرّسالة بسلام ، مني أنا الملك شلومو بن داود» .

فلمّا تلقّت ملكة شِبا[1] هذه الرّسالة ، أرسلت متعجلّة في طلب أعيانها ومُستشاريها لطلب مشورتهم حول كيفيّة الرّدّ اللازم .

تكلّم هؤلاء بنوع من الاستخفاف حول الرّسالة ومَن أرسلها ، غير أن الملكة لم تكترث لكلامهم ، بل أرسلت مركباً يحمل لشلومو هدايا كثيرة تتضمّن عدّة معادن ، وجواهر وأحجاراً كريمة . واستغرقت الرحلة مدّة عامين حتى وصلت هذه الهدايا إلى يروشَلايْم ، وذكرت الملكة في رسالة أوكلتها إلى مقدّم الرّكب : «بعد أن تتسلّم رسالتي ، آتي إليك بنفسي» . وبعد عامين من ذلك بلغت ملكة شِبا يروشَلايْم .

فلمّا سمع شلومو بأن الملكة كانت قادمة ، أوفد بِناياهو بن يهوياداه قائد جيشه ليلاقيها . فلمّا رأته الملكة ظنّت أنه الملك ، فترجّلت من عربتها .

فسأل بِناياهو : «لماذا تترجّلين من عربتكِ ؟» ، فأجابت : «ألستَ صاحب الجلالة الملك ؟» .

فقال بِناياهو : «لستُ سوى مقدّم من رجاله» .

---

(1) نعرفها في تراثنا الإسلامي ببلقيس ملكة سَبَأ ، واسم «بلقيس» لا يرد أصلاً في سفر الملوك ولا حتى في التّلمود . وفي القرآن الكريم (النّمل – 22) لا إشارة له ، بل مصدره التراث الشفاهي لقصص الأنبياء ، المستند إلى الإسرائيليات والأساطير المحلّية .

فالتفتت الملكة إلى وصيفاتها وقالت لهنّ : «إن كان هذا مجرّد واحد من المقدّمين ، وهو بهذه الهيئة النّبيلة والفارهة ، فكم بالأحرى يكون عظيماً سيّدُه الملك !» .

واصطحب بِناياهو بن يهوياداه ملكة شِبا إلى قصر الملك . وكان الملك تهيّأ لاستقبال ضيفته في قاعة كانت جدرانها وأرضها منزّلة بالزّجاج ، فخُدعت الملكة في البداية بمنظرها وتوهّمت أن الملك إنما كان جالساً في الماء[1] .

ثم لمّا اختبرت الملكة حكمة شلومو[2] ، وخبرت عظمته ، قالت :

«لم أصدّق الأخبار حتى جئتُ وأبصَرَت عيناي ، فهو ذا النّصف لم أُخبَر به . طُوبى لرجالك وطُوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السّامعين حكمتك . ليكن مُباركاً الرّب إلهك ، الذي جعلك على كُرسي يسرَئيل لتجري حُكماً وبِرّاً»[3] .

فلمّا تناهت كلمات ملكة شِبا إلى أسماع الممالك الأخرى ، تعاظمت هيبة شلومو في نفوس أفرادها ، وأضحى أعظم وأرفع شأناً من ملوك الأرض جميعاً بحكمته وغناه .

وكان مولد شلومو في سنة 2912 للخليقة ، وقد حكم على يسرَئيل أربعين سنة . هذا ومَضَت ما بين عهد حُكم شلومو وزمن خراب الهيكل أربع مئة وثلاث وثلاثون سنة .

* * *

(1) من المهم جداً عقد دراسة مقارنة نقدية بين التّراث الرّوائي اليهودي (في أجَداه التّلمود والمدراش) ، وبين سير الأقدمين وقصص الأنبياء في تراثنا الإسلامي .
(2) امتحنته بمسائل ، كما هو مذكور في سفر الملوك الأول ، الأصحاح العاشر .
(3) انظر سفر الملوك الأول - 10 : 7 .